القاف بين القدامى والمعاصرين
دراسة صوتية مقارنة

محمد بن سالم المعشني

كلية الآداب والعلوم الاجتماعية

جامعة السلطان قابوس

للقاف أشكال نطق مختلفة في العربية الفصحى وفي اللهجات العامية القديمة والحديثة؛ فهناك من ينطقه همزة، وهناك من ينطقه جيماً، وهناك من ينطقه كافاً، وهناك من ينطقه غيناً، وهناك من ينطقه مهموساً، وهناك من ينطقه مجهوراً، وهناك من ينطقه صوتاً مركباً، وهناك من ينطقه غير مركب.

والملاحظ، أن هذا الاختلاف الحاصل في أشكال نطق القاف اليوم، ليس محصوراً في إقليم أو قطر عربي واحد، بل يمتد من أقطار الخليج والجزيرة العربية إلى بلاد المغرب العربي في الشمال الأفريقي حتى مراكش، فلا تكاد تخلو منه لهجة من لهجات الأقاليم العربية.

كما أنه يشمل الفصحى القديمة نفسها مقارنة بالفصحى المعاصرة التي يغلب على نطقه فيها الهمس بخلاف نطقه المجهور في الفصحى القديمة كما ورد عن علماء العربية القدامى.

ولقد انشغلت بهذا الموضوع منذ أن قمت بتدريس مادة الأصوات اللغوية لدفعات من طلاب قسم اللغة العربية بجامعة السلطان قابوس، ولفت نظري هذا الاختلاف الواضح في أشكال نطق القاف الذي لاحظته بين الطلاب الذين أدرسهم، ولاحظته أيضا في اللهجات العامية التي أسمعها في عُمان، وفي اليمن، والمناطق المجاورة لهما في الخليج العربي والجزيرة.

ولما رجعت إلى ما كتب علماء العربية القدامى والمعاصرون عن القاف، ازددت قناعة بضرورة القيام بدراسة مستقلة شاملة لهذا الصوت، تجمع الآراء والأقوال المختلفة فيه، وتتناول المنهج الذي درس به كل من الفريقين هذا الصوت، وتقارن بين أشكاله الموجودة في اللهجات العامية، وتلك التي توجد في الفصحى القديمة، وفي الفصحى المعاصرة، بل رأيت أنه من المفيد لهذه الدراسة المقارنة أن تتناول القاف الموجودة في كل من: المهرية والجبالية والحرسوسية، وهي من بقايا اللسان

العربي الجنوبي القديم، ولا تزال منتشرة في مناطق واسعة من سلطنة عمان واليمن على شكل لهجات محكية غير مكتوبة.

وفي اعتقادي، أنّ تحديد صفة صوت القاف ومخرجه فيها، سيساعدنا في تقرير الصفة الأصلية والمخرج الحقيقي للقاف في العربية الفصحى القديمة؛ وذلك من باب أن ما تشترك فيه اللغتان المتقاربتان أو المنتميتان إلى أصل واحد دليل على قدمه ووجوده في هذا الأصل المشترك الذي يمكن تسميته هنا بالعربية الأولى، كما أن ما تتفق فيه اللغتان المنتميتان إلى أصل لغوي واحد يكون ممثلاً لهذا الأصل المشترك، وفي بعض الأحيان قد تحتفظ إحدى اللغتين ببعض الظواهر اللغوية القديمة التي تكون قد فقدتها نظيرتها، ويكون من الممكن الحكم على أن هذه الظاهرة القديمة الموجودة في هذه اللغة كانت في تلك اللغة أيضاً في زمن مضى.

وهذه المقارنة الصوتية ليست مفيدة في تقرير الصفة أو المخرج الصحيح للقاف في الفصحى فحسب، وإنما قد تساعد أيضا على معرفة التغييرات التي أصابت القاف في اللهجات العامية والفصحى المعاصرة.

والخوف أن ينْقرض هذا التراث اللغوي الغني أمام أعيننا، قبل أن يدرس دراسات مقارنة شاملة مع الفصحى ولهجاتها؛ خدمة للفصحى وتنشيطاً للدراسات اللغوية العربية المقارنة في مجال الأصوات بالذات.

فمن الملاحظ أن البحث اللغوي المقارن في دراساتنا المعاصرة لا يزال نادراً، وما وجد منه يتم بين العربية الفصحى واللغات السامية كالعبرية والآرامية والسريانية والحبشية وغيرها من اللغات السامية المنقرضة أو البعيدة عن العربية الفصحى من حيث المكان أو الزمان أو السمات والخصائص مقارنة بالعربية الجنوبية ولهجاتها وهي بلا شك الأقرب إلى الفصحى، من حيث المكان والزمان والسمات والخصائص.

فاللسان العربي الجنوبي شقيق أو صنو للسان العربي المبين يمكننا الحكم على أحدهما من الآخر؛ لأن هناك صفات كثيرة مشتركة تجمع بينهما في مستويات اللغة المختلفة ومن بينها مستوى الأصوات.

وأرجو أن يكون هذا البحث خطوة في الدراسات الصوتية المقارنة بين العربية الفصحى واللهجات العامية، وبين لغات جنوب الجزيرة العربية المعاصرة.

القاف في اللغة السامية

ظهر مصطلح اللغات السامية في العصر الحديث في دراسات المستشرقين الذين بحثوا في اللغات القديمة والحديثة التي نشأت في شبه الجزيرة العربية والمناطق المجاورة لها في العراق والشام وبلاد الحبشة، فقد لاحظ هؤلاء العلماء أن هناك تقارباً وتشابهاً كبيرين بين لغات الشعوب والأقوام الذين كانوا يعيشون في هذه المناطق. وهذا ما جعلهم يعتقدون أنها تنحدر من أصل قديم واحد، هو ما أطلق عليه لاحقاً في مباحثهم ودراساتهم اللغة السامية الأم.

واللغة السامية الأم ليست لغة حقيقية معروفة النصوص والقواعد، وإنما هي لغة مفترضة في أذهان العلماء والباحثين بناء على ما وجدوا من سمات لغوية مشتركة بين هذه اللغات، افترض العلماء أن ما تشترك فيه هذه اللغات من مفردات وقواعد وظواهر لغوية يمكن أن يكون في الأصل موجوداً في اللغة الأم التي كان الجميع يشتركون فيها بداية الأمر، ثم تفرعت اللغة الأم إلى لهجات نتيجة لعوامل شتى، ثم أصبحت هذه اللهجات لغات مختلفة عن بعضها.

وكلمة (سامية) مأخوذة من كلمة سام، أي سام بن نوح ـ عليه السلام ـ الذي ترى التوراة أن هذه الشعوب من نسله. وكان المستشرق الألماني (شلوتسر) هو أول من أطلق اسم الشعوب السامية على العبرانيين، والعرب، والأحباش في القرن الثامن عشر.

وما يميز هذه اللغات السامية عن الفصائل اللغوية الأخرى يتمثل في الأصوات اللغوية الصامتة قبل أي شيء آخر؛ حيث يعتمد على الأصوات الصامتة فيها بشكل أساسي في تحديد معاني الكلمات، كما يقع عليها الثقل الرئيسي في النطق، أما الأصوات المتحركة [الصائتة] فدورها ثانوي في اللغات السامية، وصفاتها تتأثر بالأصوات الصامتة(١).

ويعتمد علماء اللغات السامية في تحديد صفات ومخارج أصوات اللغة السامية الأم واللغات السامية القديمة على طرق عدة، منها: التلفظ التقليدي في اللغات التي رويت حية أو غير حية: كالعربية، والإثيوبية، والآرامية، والعبرية، وعلى ما جاء به نحاة اللغات التي فيها تقليد نحوي: كالعربية، والسريانية، والعبرية، وكذلك على استنساخ كلمات وفقر سامية في لغات أخرى، (الإغريقية والآرامية للأكدية، والإغريقية واللاتينية للعبرية والبونية الفينيقية وغيرها..)، وأخيراً قد يلجأ علماء الساميات إلى إعادة بناء تهجي الأكدية أو الأوغارتية أو العربية الجنوبية القديمة بناء على ما يقابلها في العربية الشمالية والعبرية وغيرهما(٢).

والأصوات في اللغات السامية عرضة للتطور والتغير بسبب عوامل مختلفة، وقد ساعد وضع العلماء للقوانين الصوتية الباحثين على تفسير وتعليل ما تتعرض له الأصوات اللغوية من تغيرات عبر مراحل التاريخ. ومن أهم القوانين الصوتية التي تفسر عمليات التغير في الأصوات ما يعرف بقانون المخالفة والمماثلة. وتعد اللغة العربية الشمالية من أكثر اللغات السامية احتفاظاً بالأصوات الأصلية(٣). ويظهر

(١) كارل بروكلمان، فقه اللغات السامية، ترجمة: رمضان عبد التواب، ص١١ ـ ١٥.

(٢) موسكاتي، وآخرون، مدخل إلى نحو اللغات السامية، ترجمة مهدي المخزومي وعبد الجبار المطلبي، ص٤٣-٤٤.

(٣) كارل بروكلمان، فقه اللغات السامية، ترجمة: رمضان عبد التواب، ص٤٨. برجشتراسر، التطور النحوي للغة العربية، ترجمة: رمضان عبد التواب، ص٢٣.

من مقارنة بعض اللغات السامية ببعض أنها كانت تشترك في مجموعة من الأصوات الصامتة، وهي:

١- صوتان شديدان يتكونان بإغلاق الشفتين، أحدهما مهموس، والآخر مجهور، هما /ب/المهموسة، و/ب/ المجهورة.

٢- صوتان شديدان أسنانيان، هما: صوت /د/ ، وصوت /ت/ .

٣- صوت مهموس ذو نطق مهموز، وهو: صوت /ط/ .

٤- صوتان شديدان يتكونان عند سقف الحنك الصلب، هما صوت /ك/ ، وصوت /ج/ .

٥- صوت مهموس ذو نطق مهموز، وهو صوت /ق/ .

٦- صوتان رخويان يتكونان بين الأسنان، هما /ث/المهموسة، و/ذ/ المجهورة.

٧- صوتان رخويان يتكونان بين الأسنان مع رفع مؤخرة اللسان نحو اللثة، أحدهما مهموس وهو صوت /ظ/والآخر مجهور، وهو صوت /ض/ .

٨- خمسة أصوات رخوة، وهي صوت / س/ ، وصوت السين الجانبية، وهي صوت مهموس يتكون بوضع طرف اللسان عند اللثة مع تقعير مؤخرة اللسان تقعيراً خفيفاً. والصوت الثالث الرخو مثل الصوت السابق تماماً غير أن مؤخرة اللسان تقعر فيه بشدة، وهو صوت /ش/ ، والرابع هو صوت /ص/ والخامس هو صوت /ز/ .

٩- صوتان رخويان طبقيان أحدهما مجهور وهو /غ/والآخر مهموس وهو /خ/ .

١٠- أربعة أصوات حلقية، وهي: صوت صوت /ء/ ، وصوت /هـ/ ، وصوت /ح/ ، وصوت /ع/ .

١١- أربعة أصوات متوسطة، وهي: صوت /م/ ، وصوت /ن/ ، وصوت /ل/ ، وصوت /ر/ .

١٢- وصوت /و/ وصوت /ي/[١].

وتتحدث المصادر السامية المقارنة عن صوتين لهويين انفجاريين هما صوت /ك/ المهموسة، وصوت /ك/ المجهورة، كما تتحدث عن صوت انفجاري لهوي مفخم هو صوت /ق/ المفخم الذي يعد ساكناً مفخماً مقابلاً للكاف / k/ .

وتؤكد هذه المصادر أن وصف هذا الصوت بالمهموس ليس مؤكداً تماماً، على الرغم من النظائر المهموسة في عدد من اللغات السامية[٢].

ولكن ذهبت آراء بعض العلماء إلى القول: بأن القاف في اللغة السامية الأم كان صوتاً شديداً مهموساً ذا نطق مهموز، يتكون عند الطبق[٣].

وصف القدامى للقاف

لقد تناول علماء اللغة العربية القدامى صوت القاف بالدرس والتحليل في كتبهم ومصنفاتهم، وتتفق أقوالهم على أن القاف القديمة التي تحدثوا عنها ووصفوها مختلفة عن القاف الموجودة في الفصحى المعاصرة من حيث المخرج ،ومن حيث الصفة، ومن حيث الترتيب.

ويظهر بجلاء من كلام هؤلاء العلماء أنهم متفقون على تحديد موضع القاف ومكان خروجه، بأنه كان يخرج من أقصى اللسان، وما فوقه من الحنك الأعلى، على نحو ما ذكر سيبويه وقال: بأن القاف يخرج من أقصى اللسان، وما فوقه من الحنك الأعلى[٤]. ومخرج القاف ـ عند ابن جني ـ من أقصى اللسان ومن أسفل من ذلك، وأدنى إلى مقدم الفم مخرج الكاف[٥].

(١) كارل بروكلمان، فقه اللغات السامية، ص٤١.

(٢) سباتينو موسكاتي، وآخرون، مدخل إلى نحو اللغات السامية المقارن، عالم الكتب، بيروت، ١٩٩٣م، ص٧٠.

(٣) كارل بروكلمان، فقه اللغات السامية، الرياض، مطبوعات جامعة الرياض، ١٩٧٧م، ص٣٩.

(٤) سيبويه، أبو بشر عمرو بن عثمان، الكتاب، الجزء الرابع، تحقيق: عبد السلام هارون، بيروت، دار الجيل، ص٤٣٣.

(٥) ابن جني، أبو الفتح عثمان، سر صناعة الإعراب، الجزء الأول، دمشق، دار القلم، ١٩٨٥م، ص٥١.

ويخرج القاف ـ عند ابن الجزري ـ من أقصى اللسان مما يلي الحلق وما فوقه من الحنك(١).

أما الترتيب؛ فقد وضع علماء العربية القدامى القاف بعد الغين والخاء، فترتيب الخليل للقاف هكذا: [خ غ ق ك ج](٢).

وترتيب سيبويه، هكذا: [غ خ ك ق ج](٣).

أما ترتيب ابن جني، فيأتي كما يلي: [غ خ ق ك ج]، ويظهر فيه أن مخرج القاف عنده يأتي بعد الغين والخاء، فقد ذكر في وصفه لموضع نطق القاف بأنه فوق الغين والخاء، أي بعدهما في الترتيب الصوتي الذي يبدأ من الحلق(٤).

ومن الواضح أن هذا الترتيب هو ما عليه كثير من المتأخرين، مثل: الزمخشري، وابن يعيش، وابن الجزري الذين جعلوا القاف والكاف من مخرج عام واحد.. وإن اعتبروا الكاف أدنى إلى مقدم الفم أي يأتي بعد القاف في الترتيب(٥).

أما صفة القاف عند علماء العربية القدامى فقد أكدوا أنه كان صوتا مجهورا؛ فسيبويه وصفه بالجهر(٦). ومن الواضح أن القدماء مجمعون على جعل القاف من الأصوات المجهورة(٧).

---

(١) ابن الجزري، أبوالخير محمد بن محمد الدمشقي، النشر في القراءات العشر، الجزء الأول، بيروت، دار الكتب العلمية، ، ص١٩٩.

(٢) الخليل بن أحمد الفراهيدي، كتاب العين، الجزء الأول، تحقيق: مهدي المخزومي، وإبراهيم السامرائي، ص٥٣.

(٣) سيبويه، الكتاب ٤ / ٤٣١.

(٤) ابن جني، سر صناعة الإعراب، ١ / ٥٢.

(٥) أحمد مختار عمر، دراسة الصوت اللغوي، القاهرة، عالم الكتب، ١٩٩٧م، ص٣٤٢.

(٦) سيبويه، الكتاب ٤ / ٤٣٤.

(٧) إبراهيم أنيس، الأصوات اللغوية، القاهرة، مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٩٥م، ص١٣٥.

نطق القاف في اللهجات القديمة:

لا يخفى أن علماء العربية الأوائل لم يهتموا باللهجات العامية اهتمام المعاصرين من علماء اللغة بها؛ تعظيماً للفصحى وإعجاباً بها؛ أو خوفاً عليها من الضياع.

وكان من نتيجة هذا الإعراض عن اللهجات العامية من قبل علماء العربية القدامى أننا اليوم لا نعرف إلا القليل عن اللهجات العربية القديمة، فكل ما لدينا عنها، هو إشارات وكلمات، أو ظواهر محدودة، تشير إلى أن هناك تنوعاً في لهجات القبائل العربية القديمة، دون تفصيلات كافية لهذه الظواهر اللهجية المشار إليها، ومعظم ما جاء من ذلك متركز في الموضوعات النحوية والصرفية والدلالية، وليس فيها عن القضايا الصوتية إلا شيء قليل.

ومن هذا القليل، ما ذكر أن بني تميم ـ أو بعضهم ـ يلحقون القاف بالكاف، فيقولون: الكوم، وهم يريدون القوم. وهذه لغة معروفة في بني تميم كما تقول المصادر.

قال الشاعر:

ولا أكول لكدْر الكوم كد نضجت ولا أكول لباب الدار مكفول

يريد:

ولا أقول لقدْر القوم قد نضجت ولا أقول لباب الدار مقفول

وينسب ابن دريد في الجمهرة إلى بني تميم هذه الظاهرة، قائلاً: إنهم يلحقون القاف بالكاف، فتغلظ حتى تكون بين القاف والكاف، فيقولون: الكوم وهم يريدون بذلك القوم(١).

وقد تحدث ابن فارس عن ذلك فقال: أما بنو تميم فإنهم يلحقون القاف باللهاة حتى تغلظ جداً، فيقولون: القيوم، فتكون بين الكاف والقاف، وهذه لغة فيهم،

(١) ابن دريد، أبوبكر محمد بن الحسن، جمهرة اللغة، الجزء الأول،بيروت، دار صابر، ص٥.

وتعرف هذه القاف التميمية بالقاف المعقودة.

ومن الأمثلة التميمية على هذه القاف قولهم: ما أدري أين بكع، بمعنى بقع، أي: ذهب. وقولهم كال، عوضاً عن قال(١).

وأورد المطلبي في دراسته للهجة تميم، أن هذه القاف التميمية التي تنعت بأنها بين القاف والكاف هي صورة من صور القاف المهموسة، وهذا يعني أنها تختلف في الصفة عن القاف العربية التي درسها اللغويون العرب القدامى، ووصفوها بالجهر(٢)، ويرى المطلبي أن كتابة هذه القاف كافاً أدت إلى خلط بين ظاهرة نطق القاف المجهورة صوتاً مهموساً كما يحدث في لهجة تميم السابقة، وبين ظاهرة قلب القاف مجهورة أو مهموسة كافاً عند غير تميم في بعض الكلمات، والفرق واضح ـ في نظره ـ بين الظاهرتين؛ فالقاف التميمية هي ظاهرة لنطق صوت القاف نطقاً خاصاً، والثانية، ظاهرة إبدال عند غير التميميين(٣).

ويرى عبد الرحمن أيوب أن هذه القاف التميمية المهموسة لم تكن لهوية بل رخوة؛ بمعنى أنها قريبة من الكاف في نطقها الفصيح اليوم، ولكن مع تفخيم(٤).

ويعتقد كمال بشر أن عبارة ابن فارس التي تصف القاف التميمية، بأنها [بين القاف والكاف] إنما يصدق معناها على [الجاف] القصية المجهورة، لا القاف اللهوية المهموسة، وما يؤيد هذا الاستنتاج ـ عنده ـ كتابة هذه الصورة بالكاف في البيت السابق المنسوب إلى شاعر تميمي، إذ لم يجد ابن فارس رمزاً مناسباً لكتابتها، فلجأ إلى رمز الكاف؛ لأنها أقرب الأصوات إليها، بل هي نظيرها المهموس(٥).

(١) أحمد بن فارس، الصاحبي في فقه اللغة، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٩٩٧م، ص٥٤.

(٢) غالب فاضل المطلبي، لهجة تميم وأثرها في العربية الموحدة، بغداد، دار الحرية للطباعة، ١٩٧٨م، ص١٠٣.

(٣) المرجع السابق، ١٠٥.

(٤) عبدالرحمن أيوب، محاضرات في اللغة، بغداد، مطبعة المعارف، ١٩٦٦م، ١٣٠.

(٥) كمال بشر، علم الأصوات، ص٢٨٢.

ورجح عبد العزيز مطر أن تكون هذه القاف شبيهة بالجيم القاهرية، وهي صوت مجهور(١).

وقد تحدث ابن سينا في كتاب أسباب حدوث الحروف عن كاف كان يستخدمها العرب في عصره [النصف الثاني من القرن الرابع والنصف الأول من القرن الخامس الهجري]، وقال: أنها تحدث حين تحدث الكاف العادية، إلا أنها أدخل قليلاً، والحبس فيها أضعف(٢).

وعقب عبد المجيد عابدين على كلام ابن سينا بقوله: وهو صورة من صور القاف المهموسة التي انتشرت في لهجات نجد القديمة التي عبر عنها القدماء بلغة تميم، وتشمل قبائل من أسد وقيس(٣).

وهذه القاف القريبة من الكاف هي التي تعرف بالقاف المعقودة، وقد انتقلت منذ القرن الرابع الهجري إلى أقطار شتى من إفريقية والأندلس مع القبائل العربية، وتطور نطقها قليلاً في بعض هذه الأقطار حتى صارت لا تختلف عن الكاف، وشاعت في لهجات الأندلس منذ القرن السابع الهجري(٤).

وكان أهل البادية في مصر يعرفون بها أيام المماليك؛ حيث كان الأعراب يميزون بهذه الكاف المنقلبة عن القاف، فكان إذا ادعى أحدهم أنه حضري، يقال له قل: دقيق، فإن قال دقيق بالكاف يعرف أنه من الأعراب فيقتل إن كان مطارداً من سلطة المماليك، وإن قال دقيق بالقاف المعهودة أطلق(٥).

(١) عبدالعزيز مطر، الأصالة العربية في لهجات الخليج، ص١٥٣.

(٢) ابن سينا، أسباب حدوث الحروف، القاهرة، مطبعة المؤيد، ١٣٣٢هـ، ص١٠.

(٣) عبدالمجيد عابدين، من أصول اللهجات العربية في السودان، ص٤٥.

(٤) أحمد محمد المقري، نفح الطيب، الجزء الأول، بيروت،دار الفكر للطباعة والنشر، ١٩٨٦م، ص٦٠٢.

(٥) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، الجزء الثامن، القاهرة، طبعة مصورة عن طبعة دار الكتب، ص١٥٣.

وقد ذكر أبو حيان التوحيدي أن القبائل البدوية في بلاد المغرب والجزائر كانت تتلفظ بالقاف المعقودة وهي قاف بين القاف والكاف، وهي غالبة في زمنه على ألسنة من يوجد في البوادي والأمصار، حتى لا يكاد عربي ينطق إلا بها، لا بالقاف الخالصة الموصوفة في كتب النحويين والمنقولة على ألسنة القراء(١).

وتحدث ابن خلدون في المقدمة عن قاف في لغة جيل عربي في عهده، يجيئون بها متوسطة بين الكاف والقاف، وهذا النطق الخاص للقاف موجود عند جميع أفراد الجيل الذي تحدث عنه ابن خلدون، ويعد هذا النطق للقاف علامة تميزهم من بين الأمم والأجيال، ولا يشاركهم فيه غيرهم، بل إن من يريد التقرب والانتساب إلى هذا الجيل والدخول فيه يحاكيهم في النطق بهذه القاف التي يتميز العربي الصريح من الدخيل والحضري.

ويرجح ابن خلدون أن نطق القاف على هذا النحو هو لغة مضر بعينها؛ لأن أفراد الجيل الذين يستخدمون هذا القاف هم من أعقاب مضر، وهذه اللغة متوارثة فيهم، وغير بعيد أنها لغة النبي ﷺ، وذكر ابن خلدون أن فقهاء آل البيت يزعمون أن من قرأ في أم القرآن ﴿اهدنا الصراط المستقيم﴾ بغير هذه القاف التي يرون أنها الصحيحة والفصيحة، فقد لحن وأفسد صلاته، لكنه يستغرب كيف يحكم هؤلاء ببطلان صلاة من ينطق القاف في القرآن على نحو مخالف لنطق هذا الجيل الذي يتحدث عنه، في الوقت الذي توجد فيه قاف أخرى صحيحة فصيحة هي القاف الموجودة في لغة أهل الأمصار التي تكلم عنها العلماء القدامى، وقالوا: إنها تخرج من أقصى الحنك، وهذه القاف الموجودة عند أهل الأمصار لم يستحدثوها، وإنما تناقلوها من لدن سلفهم، وأكثرهم من مضر لما نزلوا الأمصار من لدن الفتح(٢).

(١) محمد الأنطاكي، دراسات في فقه اللغة، ص١٥٧: نقلاً عن مخطوط لأبي حيان.

(٢) ابن خلدون، المقدمة، بيروت، دار الجيل، ص٦١٧.

إن كلام ابن خلدون السابق، وكلام غيره ممن تحدث عن قاف تقلب كافاً أو قافٍ بين القاف والكاف أو قاف معقودة موجودة عند الأعراب، كلام عام يتحدث عن وجود شكلين لنطق القاف في زمانه: أحدهما في البادية، والآخر عند الحضر، فلا نعرف المقصود بالقاف التي تقلب كافاً، أهي القاف التميمية، أم هي القاف البدوية نفسها التي تكلم عنها ابن خلدون؟ ثم هل هذه القاف البدوية التي تكلم عنها ابن خلدون تمثل القاف التميمية نفسها؟ وهل كانت هذه القاف التميمية مجهورة، كما يرى بعض المعاصرين؟ أم مهموسة على رأي آخرين؟

ولا نبالغ إذا قلنا بأن كلام هؤلاء القدامى، لا يعطينا صورة كافية، عن القاف التميمية، أو القاف الموجودة عند الأعراب الذين تكلم عنهم ابن خلدون، أو تلك الموجودة عند البدو أيام المماليك، أو تلك التي توجد في الأندلس والمغرب العربي كما ذكرت بعض المصادر.

وصف علماء اللغة المعاصرين للقاف:

يتفق علماء اللغة المعاصرون في نظرتهم إلى صوت القاف على أنه صوت مهموس يخرج من اللهاة إذا كان في إطار العربية الفصحى المعاصرة كما ينطقه معظم قراء القرآن المعاصرين والطبقة المتعلمة المثقفة في المجتمع العربي الحديث. وهذه آراء ثلة من علماء العربية المعاصرين في القاف.

١- إبراهيم أنيس:

يقول إبراهيم أنيس: القاف كما ينطق بها الآن في مصر بين مجيدي القراءات صوت شديد مهموس، رغم أن جميع كتب القراءات قد وصفتها بأنها أحد الأصوات المجهورة(١).

٢- أحمد مختار عمر:

يقول د. أحمد مختار عمر: أما من ناحية وصفها بالجهر فإننا نجد مجيدي

(١) المرجع السابق، ص٨٥.

القراءات في مصر الآن ينطقونها مهموسة(١).

٣- كمال بشر:

ويصف كمال بشر نطق القاف بأنه يتم برفع أقصى اللسان حتى يلتقي بأدنى الحلق واللهاة مع عدم السماح للهواء بالمرور من الأنف. وبعد ضغط الهواء مدة من الزمن يُطلق سراح مجرى الهواء بأن يخفض أقصى اللسان فجأة فيندفع الهواء محدثاً صوتاً انفجارياً، ولا يتذبذب الوتران الصوتيان عند النطق بهذا الصوت. وبعد وصفه كيفية نطق القاف، أكد أن القاف صوت لهوى انفجاري مهموس(٢).

٤- عبد الصبور شاهين:

تحدث شاهين عما أسماه التطور الجوهري الذي حدث في صوت القاف في العربية المعاصرة سواء في اللهجات العامية أم في الفصحى الحديثة، التي تخلت فيها القاف عن صفة الجهر التي كانت لها في القديم بحسب وصف سيبويه(٣).

٥- رمضان عبد التواب:

خصص عبد التواب مقالاً كاملاً للقاف في أحد كتبه، بدأه بالإشارة إلى التغيرات التاريخية التي لحقت بالقاف في العربية، ثم ذكر أن مقارنة اللغات السامية تدل على أنه صوت شديد مهموس، ينطق برفع مؤخرة اللسان، وإلصاقها باللهاة، لكي ينحبس الهواء عند نقطة هذا الالتصاق، ثم يزول فجأة، مع عدم حدوث اهتزازات في الأوتار الصوتية، ثم قال: بأن اللغويين العرب وصفوا القاف بأنه صوت مجهور، فإن صدق هذا الوصف، فهو يرى أن صفة الجهر بقيت في نطق القاف في أغلب اللهجات العربية المعاصرة لكن مع تقدم مخرجه إلى الأمام قليلا، وأصبح كالكاف الفارسية. ثم أشار إلى أن هناك تغيرات كثيرة طرأت عليه في

(١) أحمد مختار عمر، دراسة الصوت اللغوي، ص٣٤٣.

(٢) كمال بشر، الأصوات العربية، القاهرة، مكتبة الشباب، د:ت، ص١٠٩.

(٣) عبدالصبور شاهين، في التطور اللغوي، بيروت، مؤسسة الرسالة ١٩٨٥م، ص١٩٥.

البلاد العربية: كنطقه صوتاً مزجياً (affricate) كالجيم الفصيحة التي سمعها في البحرين، كما أنه ينطق صوتا مزجياً في الرياض وضواحيها غير أنه مكون من الدال والزاي [dz]. وذكر أن القاف تحول في السودان وجنوب العراق إلى غين، وفي اللهجة المصرية تحول القاف غيناً في كلمة يغدر من يقدر، وكلمة زغزغ بدلاً من زقزق، والصحيح أن الغين في زغزغ غير منقلبة؛ لوجودها بهذا المعنى في الفصحى، ولكن القاف تقلب غيناً في كلمة دغدغه بمعنى: دقدقه أي ضربه ضرباً مبرحاً في اللهجة المصرية كما أكد لي بعض زملائي من مصر. وأشار ـ أيضاً ـ إلى أن القاف تقلب كافاً في مدن فلسطين.

وعلل تحولها إلى صوت مزجي بمجيء كسرة بعدها، وأن ضياع الانفجار منها وتزحزح مخرجها إلى الأمام قليلا هو سبب انقلابها غيناً وكافاً. أما تحولها إلى همزة في بعض اللهجات فتفسيره أن مخرج القاف انتقل إلى الخلف ليبحث عن صوت شبيه به فلم يجد غير الهمزة لوجود صفة الشدة في كل منهما(١).

٦- محمد الأنطاكي:

يؤكد الأنطاكي أن القاف لا يمكن إلا أن يكون صوتاً مهموساً؛ذاهباً إلى القول بأن النحاة العرب القدامى قد أخطأوا في نعته بالجهر، واستند في تخطئته للغويين العرب القدامى إلى أن تلاوة القرآن المتواترة نقلته مهموساً، وأن إجماع الشعوب العربية اللاشعوري على همس القاف ـ إذا أرادوا تقليد النطق الصحيح للقاف ـ دليل آخر على أنها مهموسة. ومما استند إليه ـ أيضاً ـ في تخطئة النحاة العرب أو اللغويين أنهم لم يفهموا الجهر والهمس فهماً صحيحاً(٢).

٧- المستشرقان غاردنر وبرافمان:

ذهب هذان المستشرقان إلى القول: بأن القاف كانت مهموسة، وأن وصف

(١) رمضان عبدالتواب، بحوث ومقالات في اللغة، القاهرة، مكتبة الخانجي، ١٩٨٥م، ص٩-١٤.

(٢) محمد الأنطاكي، دراسات في فقه اللغة، ط٤، بيروت، ص١٦٦.

القدامى من العلماء العرب لها بالجهر غير دقيق؛ لأنهم ما كانوا يعنون بالجهر ما نعنيه اليوم(١).

٨- كانتينو:

تكلم هذا المستشرق عن الأصوات في العربية على نحو مفصل في كتابه المترجم [دروس في أصوات العربية]، وتحدث عما أسماه بالقاف اليمنية، التي هي صوت بين القاف والكاف، وهي لا تزال معروفة في اليمن ومناطق كثيرة من البلاد العربية. وقد ذهب كانتينو في هذا الكتاب إلى أن القاف كانت مجهورة، ولو عند بعض العرب القدماء على الأقل(٢).

٩- تمام حسان:

يرى الدكتور تمام حسان في كتاب مناهج البحث في اللغة أن القاف صوت مهموس منذ القدم ولكن النحاة العرب القدامى أخطأوا في وصفه بالجهر(٣).

١٠- محمود السعران:

ذهب السعران إلى تأكيد أن القاف صوت شديد مهموس لهوي انفجاري، ويفهم من كلامه أنه يتحدث عن القاف في الفصحى المعاصرة، وليس عن القاف التي تكلم عنها القدامى من العلماء ووصفوها بالجهر، أو القاف الموجودة في اللهجات العامية داخل مصر وخارجها ولها أكثر من شكل، والدليل على ذلك قوله: أما النظير المجهور للقاف، الذي يحدث في الموضع نفسه وبالكيفية نفسها مع تذبذب الوترين الصوتيين، فليس من جملة الأصوات العربية الفصحى الآن؛ إلا أنه يسمع في بعض العاميات(٤).

(١) المرجع السابق، ص١٦١.

(٢) جان كانتينو، دروس في علم أصوات العربية، ترجمة: صالح القرمادي، تونس، ١٩٦٦م، ص٢٩-٣١.

(٣) تمام حسان، مناهج البحث في اللغة، الدار البيضاء، دار الثقافة، ١٩٧٩م، ص١٢٤.

(٤) محمود السعران، علم اللغة، ط٢، القاهرة، دار الفكر العربي، ١٩٩٧، ص١٣١.

١١- عبد الرحمن أيوب:

تحدث أيوب عن القاف ضمن حديثه عن الأصوات اللهوية، وميز بين ثلاثة أنواع للقاف في اللغة العربية؛ هي:

أ- قاف لهوية انفجارية مهموسة [q]

يتم نطقها برفع مؤخرة اللسان حتى تلتقي باللهاة، ثم ترتفع اللهاة ومؤخرة سقف الحنك حتى ينسد ممر الهواء في الأنف...إلخ. ولاشك أنه يقصد بهذا القاف التي تنعت من قبل أكثر المعاصرين بالقاف الفصيحة، وهي تلك التي تسمع من أفواه القراء المعاصرين في معظم البلاد العربية والإسلامية.

ب- قاف لهوية انفجارية مجهورة [G]

ويبدو من كلامه أنه بقصد بها نطق القاف الفصيحة في لهجة عربية سودانية في مثل: (قرآن). وللنطق بها ترتفع مؤخرة اللسان حتى تلتقي باللهاة فينسد ممر الهواء في الفم انسداداً تاماً، وتطلق الرئتان الهواء ماراً بالحنجرة فيسبب تذبذب الأوتار الصوتية، ثم ينحبس خلف نقطة التقاء اللسان باللهاة، ويظل ضاغطا حتى يغادر اللسان موضعه فيحدث انفجار، هو صوت هذه القاف اللهوية الانفجارية.

ج- قاف لهوية احتكاكية مجهورة

تحدث أيوب عن هذه القاف الاحتكاكية المجهورة التي يمكن مصادفتها في اللهجة العربية السودانية بديلاً للقاف في مثل كلمة (قرآن)، وفي لهجات عربية عامية أخرى في صورة غين شديدة في مثل كلمة (قض)، وعند النطق بها تلامس مؤخرة اللسان اللهاة بحيث يكون للهواء الخارج بينهما أن يحدث احتكاكاً مسموعاً، وينطلق الهواء من الرئتين ماراً بالحنجرة مسبباً ذبذبة الأوتار الصوتية، وتكون اللهاة في وضع يغلق معه ممر الهواء في الأنف؛ وبذلك يخرج الهواء من ممره الفموي بين اللسان واللهاة فيسبب هذا الصوت(١).

(١) عبدالرحمن أيوب، أصوات اللغة، القاهرة، مكتبة الشباب، ص٢١٥.

١٢- عبد المجيد عابدين

تناول عابدين صوت القاف بشكل موسع إلى حد ما، في كتاب من أصول اللهجات العربية في السودان، وذهب فيه إلى أن القاف الفصيحة التي ننطقها اليوم صوتاً لهوياً مهموساً لا تمثل النطق القديم للقاف الذي كان عند القدامى من الحجازيين في صدر الإسلام، فقد وصفت القاف في المصادر القديمة بأنها مجهورة بشدة، وهذا يعني أنها كانت في الفصحى خلال القرون الأولى تشبه إلى حد بعيد صوت القاف الذي ينطقه أهل السودان وصعيد مصر وأكثر أرياف الجزائر، وهو صوت مجهور.

ويرجح عابدين أن هذه القاف، كانت معروفة عند غير الحجازيين في جهات من بلاد اليمن، لكنه لم يحدد هذه الجهات، وقد استدل على قدم وجود القاف المجهورة بما ورد في المعاجم العربية من كلمات بالقاف والجيم، مثل: المقذاف والمجداف، والتقادع والتجادع، والقد والجد، والقرح والجرح، والقص والجص.

وفي هذا دليل ـ عنده ـ على أن الحجازيين كانوا ينطقون القاف مجهورة في لهجاتهم القديمة، فلما سادت الفصحى بينهم وحلت معها القاف المهموسة التقى الصوتان في الفصحى في هذه الكلمات التي وردت بالقاف المهموسة أحياناً وبالقاف المجهورة التي رسمت بالخط جيماً، إذ لم يكن لها حرف في الكتابة العربية يعبر عنها(١).

١٤-غانم قدوري

ذهب قدوري في كتاب المدخل إلى علم أصوات العربية إلى تخطئة سيبويه، والقول بأنه وهم: حين وصف القاف بالجهر، وسبب وقوعه في هذا الخطأ والوهم

(١) عبدالمجيد عابدين، من أصول اللهجات العربية في السودان، الإسكندرية، دار المعرفة الجامعية، ١٩٨٩م، ص٤٢-٤٣.

راجع إلى ما في صوت القاف من ضخامة ونصاعة وقوة تجعل بعض الدارسين يتوهمون أنه مجهور، وكذلك استحالة نطق صوت شديد مجهور من مخرج القاف.

واجتماع الأمرين هنا هو الذي أوقع سيبويه فيما وقع فيه من الوهم والخطأ، ثم سار العلماء من بعده في إثره في عد القاف صوتاً مجهوراً، حتى تنبه المحدثون إلى حقيقة الأمر(١).

صور نطق القاف في اللهجات العامية المعاصرة:

أولاً: الخليج والجزيرة

تتنوع أشكال صوت القاف تبعاً لتنوع اللهجات؛ ففي أواسط اليمن وشمالها تنطق القاف صوتاً طبقياً كما تنطق الجيم في لهجة القاهرة، أما في لهجة قبائل الرولة العنزية، والقبائل البدوية في نجد إلى منتهى ديار عتيبة والدواسر وقحطان جنوباً، وإليها تنتهي لهجة الرياض، ولهجات العوازم والرشايدة ومطير المهاجرة إلى الكويت ـ ما عدا العجمان ـ فهي تشترك جميعها في نطق القاف صوتاً مزجياً، كما قال جونستون؛ حيث يتحول القاف إلى (دز)، مثل: (دزتب) أي قتب، و(بريدز) أي إبريق(٢).

ويمكن القول: إن للقاف أكثر من شكل في اللهجات العامية للبلاد السعودية، وإن كان قلبه جيماً كالجيم القاهرية شائعاً ومنتشراً في أكثر هذه اللهجات، بحكم طبيعة الحياة البدوية والريفية التي تغلب على حياة معظم سكان المملكة إلى عهود قريبة، وهذا الشكل من نطق القاف جيماً موجود في اللهجة الحجازية، وموجود في اللهجة النجدية، وموجود في اللهجات الجنوبية حالياً، وموجود في لهجات

(١) غانم قدوري، المدخل إلى أصوات العربية، عمان، دار عمار، ٢٠٠٤م، ص٢٨٢.

(٢) أحمد حسين شرف الدين، دراسات في لهجات شمال وجنوب الجزيرة العربية، الرياض، مطابع الفرزدق التجارية، ١٩٨٤م، ص٣٠.

المناطق الشمالية، وموجود في لهجات المناطق الشرقية.

وينطق القاف في مدينة الرياض وضواحيها صوتاً مزجياً، غير أنه مكون من الدال والزاي [dz] في مثل قولهم: دزبلة في قبلة ودزلب في قلب(١).

وللقاف نطق آخر سمعته من بعض السعوديين يطابق القاف التهامية، والقاف الموجودة في لغات جنوب الجزيرة العربية المعاصرة، وهذه القاف صوت مهموس وفقاً لمقياس المعاصرين المعتمد على الوترين الصوتيين في تحديد الجهر والهمس، ولكنه صوت مجهور وفقاً لمقياس القدامى وطريقتهم في تحديد الجهر والهمس.

ومن الكلمات التي ظهر لي فيها هذا النطق على ألسنة بعض المشايخ السعوديين في بعض وسائل الإعلام كلمة إقراض، وهذه القاف مختلفة تماماً عن أشكال القاف الأخرى، وهي ليست جيماً أو غيناً أو كافاً أو قافاً لهوية مهموسة، إنما هي هذه القاف التي نسمعها في بعض مناطق السعودية الجنوبية، وفي لهجة تهامة باليمن، فضلاً عن لغات جنوب الجزيرة العربية المعاصرة. وسيأتي وصف هذا الصوت عند الحديث عن القاف في الألسن العربية الجنوبية المعاصرة، ولهجة تهامة في اليمن.

وفي الكويت يتخذ نطق القاف أكثر من شكل؛ فهو في لهجة العجمان، صوت طبقي مجهور انفجاري، فيقولون: جليل، وجال، ويجوم، ورجص، ومرج، بدلاً من: قليل، وقال، ويقوم، ورقص، ومرق(٢).

ولهجة الحضر في الكويت مثل لهجات بعض مناطق الخليج الأخرى، يتم نطق القاف فيها غيناً بعض الأحايين، بل هناك حالات عند الحضر في الكويت، وبعض مناطق الخليج يتم فيها قلب الغين قافاً، أو صوتاً بين القاف والغين، في مثل: يقني،

(١) رمضان عبدالتواب، بحوث ومقالات في اللغة، ص١٠.

(٢) شريفة المعتوق، لهجة العجمان في الكويت، الدوحة، مركز التراث الشعبي لدول الخليج، ١٩٨٦، ص٥٨.

ويتقشمر بالقاف بدلاً من الغين.

وفي الإمارات العربية المتحدة ينطق القاف بصور متعددة؛ هي:

- يقلب جيماً في مثل: جاسم، بدلاً من قاسم، في مفردات معينة.

- يقلب غيناً عند بعض الناس في مثل: الاستغلال يريدون الاستقلال.

- يقلب كافاً فارسية، وهو ما يعبر عنه بالجيم القاهرية أيضاً؛ فيقولون دكيكة أي: دقيقة، ويقولون: ماكصرت، أي: ماقصرت، ويقولون: أكول لك أي: أقول لك.

- يقلب كافاً في مثل: كلبي أي قلبي(١).

وفي البحرين تغير صوت القاف في لهجة المحرق وطائفة من القرى إلى ثلاثة أصوات فرعية، هي:

-الكاف التي تشبه الجيم القاهرية التي يمثل لها بعضهم بالكاف الفارسية.

- الجيم التي تشبه الجيم الفصيحة.

- الغين التي تشبه الغين الفصيحة.

وفي لهجة سترة وطائفة من القرى تغير صوت القاف إلى صوتين فرعيين؛ هما:

- كاف تشبه الجيم القاهرية.

- كاف كالكاف العربية المفخمة تفخيماً قليلاً(٢).

وفي دراسة للمستعرب الإنجليزي (بروس إنغام) عن قبيلة الظفير ولهجتها، ذكر أثناء حديثه عن الخصائص اللغوية للهجة الظفير، أن فيها أصواتاً ليس لها مقابل، في حروف العربية الفصحى، وذكر منها:

(١) أحمد عبدالرحمن حماد، الخصائص الصوتية في لهجة الإمارات العربية، الإسكندرية، دار المعرفة الجامعية، ١٩٨٦م، ص٣١.

(٢) عبدالعزيز مطر، الأصالة العربية في لهجات الخليج، الرياض، دار عالم الكتب للنشر والتوزيع، ١٩٨٥م، ص١٤٥.

ق= صوت مزجي متحول عن قاف قريبة في النطق من الصوت (دز، dz) ومثل له من حيث طبيعة نطقه بنطق القاف كما في كلمة: المنتفق= mintifiz. وقد أكد أن هذه القاف المشابهة في النطق للزاي في لهجة الظفير موجودة أيضا في اللهجة النجدية(١).

ق=[g]، وهو صوت طبقي شديد يقابل الجيم القاهرية في كلمة جامعة(٢).

وفي سلطنة عُمان يتخذ صوت القاف أشكالاً مختلفة.. ففي المنطقة الداخلية وكل من: الرستاق ونخل والمعاول، ومسقط، ينطق القاف صوتاً لهوياً مهموساً على نحو ما ينطق الآن في العربية الفصحى المعاصرة في لغة الإعلاميين والأدباء والشعراء ومعظم قرّاء القرآن الكريم المشهورين، ومن الجدير بالذكر أن معظم سكان هذه المناطق من الحضر.

وينطق القاف غيناً عند أهل صور، ويتجلى هذا النطق للقاف بوضوح عند التكلم بالفصحى والخروج على اللهجة الصورية؛ والسبب في هذا يرجع إلى أن القاف كانت تنطق جيماً في الماضي قبل التعليم الحديث والسفر في أصل هذه اللهجة. ولا يزال قلب القاف جيماً إلى اليوم عند الصوريين حينما يتكلمون باللهجة الصورية فيما بينهم.

وفي منطقة جعلان، وبعض مناطق الشرقية المجاورة، يقلب القاف غيناً عند التكلم بالفصحى والتحدث بغير اللهجة المحلية؛ على الرغم من أن القاف يقلب جيماً كالجيم القاهرية، في لهجات: ولاية جعلان بني بوعلي، وجعلان بني بوحسن، والكامل والوافي عندما يتكلمون فيما بينهم.

وفي مناطق الجبال والبادية من محافظة ظفار، يقلب القاف غيناً عند القراءة أو التكلم بالفصحى من قبل المتكلمين بالجبالية، والمهرية، والكثيرية؛ لأن القاف في

(١) بروس إنغام، قبيلة الظفير: دراسة تاريخية لغوية مقارنة، ترجمة: عطية الظفيري، الرياض، ١٩٩٥م، ص١٩٣.

(٢) المرجع السابق، ص١٨٦.

المهرية، والجبالية، صوت طبقي مهموس يختلف نطقه عن نطق القاف المهموسة التي تستخدم في العربية الفصحى المعاصرة. أما في اللهجة الكثيرية البدوية فأصل القاف صوت مجهور [G] كما هو في سائر اللهجات البدوية وكثير من اللهجات الريفية في معظم البلدان العربية. والقاف عند الحضر من سكان صلالة ينطق صوتاً لهوياً مهموساً.

وفي مناطق من الداخلية والظاهرة، مثل: ولاية عبري، والحمراء، وينقل، ومناطق من ريف الباطنة مثل: صنعاء بني غافر، والمغيزين، ينطق القاف كافا.

وينطق القاف جيماً كالجيم القاهرية، في اللهجات البدوية في الوسطى ومحافظة ظفار وبعض مناطق الظاهرة، مثل: ولايتي محضة، والبريمي، وعموم مناطق الباطنة الساحلية التي تغلب اللهجة البدوية على ألسنة أهلها.

وقد ينطق القاف صوتاً مزجياً مزدوجاً، في بعض المناطق التابعة للبريمي وبعض مناطق شناص، فيتحول إلى [dz] في بعض الكلمات مثل: فريق وصديق ونحوها.

وفي منطقة (مسندم) تتعدد أشكال نطق القاف بين قاف لهوية مهموسة هي الغالبة، وبين قاف تقلب جيماً في مناطق، وقاف قد تقلب غيناً في بعض الأماكن من دبا عند بعض الأشخاص، كما أكد أحد طلابي من هناك على الرغم من نفي آخرين لوجود مثل هذه القاف في مسندم.

ويمكن القول: بأن ظاهرة قلب القاف جيماً عند جزء من أهالي مسندم جاء بسبب الاحتكاك بمناطق مجاورة تقلب لهجاتها القاف جيماً في الإمارات العربية المجاورة، كما يمكن تفسير قلب القاف غيناً عند قلة من أهل المنطقة بأنه نتج عن التأثر ببعض مناطق الخليج التي تشيع فيها هذه الظاهرة أو بسبب التأثر بالمحيط الفارسي القريب.

وفي اليمن، ينطق القاف صوتاً طبقياً مجهوراً على نطاق واسع في معظم مناطق اليمن ومحافظاته على نحو مماثل أو مشابه للجيم القاهرية، ومن أكثر المناطق

اليمنية التي يتجلى فيها نطق القاف جيماً تشبه الجيم القاهرية محافظة حضرموت بمناطقها الثلاث؛ وهي: حضرموت الساحل، ومناطق الصحراء والبادية، وحضرموت الداخل أو وما يعرف أحياناً بوادي حضرموت الذي يضم مدناً تاريخية مثل: تريم، وشبام وسيؤون، ومناطق أخرى.

ومن الملاحظ أن أهل حضرموت، لا يكادون يعرفون للقاف إلا صورة واحدة؛ هي القاف التي تماثل الجيم العدنية أو الجيم القاهرية، وهذه القاف في أفواه الحضارمة، صوت حنكي قصي مجهور انفجاري مثل صوت الجيم في كلمة (جمعه) بعامية القاهرة.

وإنك لتسمعها في الشارع الحضرمي، وفي المدرسة، وفي الجامعة، تسمعها من فم العالم، ومن فم السياسي، ومن فم الأديب، ومن فم الفنان، ومن فم الإمام في المسجد، تسمعها من الكبار ومن الصغار بشكل واضح جلي في كل الظروف والأحوال، فلا تخفى في النصوص الفصيحة حين يقرأها الحضرمي أو يستخدم الفصحى في كلامه، كما يفعل الآخرون من أبناء اللهجات العربية التي ليس فيها قاف لهوية مهموسة، حيث يعمدون إلى إخفاء القاف المجهورة؛ إما بنطقها مهموسة كما تفرض القواعد وكما تعلموا في الجامعات والمعاهد، أو بنطقها غيناً؛ ظناً منهم أنهم يفعلون المطلوب ويقومون بما تتطلبه القواعد المعيارية في نطق القاف دون أن يدركوا أنهم يحولون القاف غيناً، وهناك فرق كبير بين القاف وبين الغين.

ويذكر عبد الكريم الزبيدي: أنه سمع نطق القاف كافاً في اليمن، وأن الدكتور إبراهيم الصلوي أخبره أن سكان تهامة في اليمن يميل أكثرهم إلى نطق القاف كافاً[1].

وقلب القاف غيناً ظاهرة صوتية موجودة في مناطق من جنوب اليمن ووسطه[2].

(١) عبدالكريم الزبيدي، ظواهر لغوية في لهجات السودان واليمن والخليج العربي، مجلة دراسات يمنية، عدد٤٤، ديسمبر ١٩٩٢م، ص٣٥.

(٢) المرجع السابق، ص٣٧.

وهذه الظاهرة الصوتية التي يقلب فيها القاف غيناً موجودة في لهجات من البيضاء والضالع وأبين ويافع.

وقد لاحظت ذلك بنفسي في لهجات بعض الطلاب الذين التقيت بهم في دار المصطفى بتريم في رحلة علمية قمت بها إلى اليمن عام ٢٠٠٤م، وهؤلاء الطلاب قدموا من هذه المناطق لطلب العلم في دار المصطفى، و قد ظهر لي بوضوح أنهم فعلا يقلبون القاف غيناً، كما يحدث في لهجات عربية أخرى في الخليج والعراق والسودان. وفي مناطق من خولان صنعاء يتم نطق القاف صوتاً لهوياً مهموساً(١).

وهناك صورة أخرى لنطق القاف في اليمن سمعتها من أفواه بعض الأشخاص المنتمين إلى تهامة من مديرية "القناوص"، ومن مديرية "الضحي"، أثناء زيارة علمية قمت بها إلى اليمن عام ٢٠٠٤م، وهذا النطق مماثل لنطق القاف في لسان ظفار الحميري المعاصر (الجبالية)، وبقية الألسن العربية الجنوبية المعاصرة: كالمهرية، والحرسوسية، والبطحرية، والسقطرية، والهبيوتية، وهو صوت مهموس طبقي انفجاري بين الجيم الكاف، يتم نطقه عن طريق حبس الهواء بين فتحة المزمار والمخرج، ويكون مصدر تيار الهواء فوق ـ حنجري، وليس رئوياً كسائر الأصوات.

وسمعت أحد التهاميين من مديرية الضحي، يقول: السيارات انقلبن، ظهر لي بوضوح تام أن نطقه للقاف في كلمة انقلبن في الجملة السابقة، كان يمثل النطق الخاص للقاف الذي أتحدث عنه، وكذلك سمعت هذا النطق من تهامي آخر من مديرية القناوص ينطق القاف في كلمتي "القناوص" و"الديمقراطية". وقد لمحت أكثر من مرة نطقاً مماثلاً وآخر مشابهاً لهذه القاف عند بعض اليمنيين وبعض السعوديين، من خلال وسائل الإعلام في البلدين.

ويبدو لي أن هذا النطق أخذ يختفي من اللهجات التي كان يظهر فيها بوضوح، فلم يعد ممكناً سماعه بسهولة من المتحدثين بهذه اللهجات، ولم يعد

(١) أحمد حسين شرف الدين، دراسات في لهجات شمال وجنوب الجزيرة العربية، ص٣٠.

يظهر إلا في كلمات قليلة، وربما أن الذين توجد في لهجاتهم هذه الظاهرة أصبحوا اليوم لا يحبذون أن يظهروا بهذا النطق خوفاً من التعيير أو من الظهور بموقف لغوي غريب عن البيئة اللغوية العامة التي يعيشون فيها، وهي بيئة يتحول القاف فيها جيماً قاهرية في الغالب أو صوتاً لهوياً مهموساً في الفصحى المعاصرة التي بها يتعلمون ويقرأون ويسمعون وسائل الإعلام.

ثانياً: العراق

تتنوع صور نطق القاف في لهجات العراق العامية، على النحو الآتي:

- يقلب القاف جيماً في أكثر اللهجات العامية العراقية، وخاصة في لهجات المناطق الجنوبية والفرات الأوسط(١)، وفي كل منطقة توجد فيها المجتمعات العشائرية بصورة عامة. فهم يقولون: جِدِر، وجِدام، وسابِج، وجِريب، وجِدَم، وساجيه، وصِديج، وطِريج، وحِريجة، بدلاً من، قدر، قدام، وسابق، وقريب، وقدم، وساقية، وصديق، وطريق، وحريق(٢).

وهذه القاف التي نتكلم عنها في مناطق جنوب العراق والفرات الأوسط، تارة تنطق على شكل [j] في كلمة jump، وتنتشر في لهجات الفرات الأوسط ومناطق الريف بوجه خاص، وتارة أخرى تكون مثل [g] في كلمة go، وهذا النطق منتشر في البصرة والجنوب بصورة عامة.

ويقلب القاف في بعض اللهجات العراقية كافاً، في مثل: كاتِل، ويِكتِل، ومكتول؛ بدلاً من قاتل، ويقتل، ومقتول. ووكِت، وأوكات؛ بدلاً من وقت وأوقات(٣).

(١) بروس إنغام، قبيلة الظفير، ص٢٠٤.

(٢) عبدالقادر عبدالجليل، الدلالة الصوتية والصرفية في لهجة الإقليم الشمالي، عمان، دار صفاء للنشر والتوزيع، ١٩٩٧م، ص٣٥.

(٣) المرجع السابق، ص٤٩.

– وهناك في العراق، من يقلب القاف غيناً، ويقلب الغين قافاً، مثل المواصلة الذين يبدلون القاف غيناً، فيقولون: غشع من قشع، ويبدلون الغين قافاً، فيقولون: قشمرة بدلاً من غشمرة(١).

وقلب القاف غيناً أو الغين قافاً موجود في أماكن من جنوب العراق، ويبدو أن هذا يحدث حين يقوم ابن اللهجة التي تنطق القاف جيماً بقراءة نص فصيح أو التلفظ بكلمة فصيحة تتضمن صوت القاف.

وبشكل عام، يمكن القول: إن ما يحدث للقاف من تنوعات في أشكال نطقها في لهجات العراق العامية هو عين ما يحدث لها في لهجات الخليج العربي والجزيرة العربية؛ بسبب القرب الاجتماعي والمكاني الذي يربط القبائل العراقية بقبائل الخليج والجزيرة.

ثالثاً: بلاد الشام

تنطق القاف كافاً في بعض قرى فلسطين؛ فيقولون: كال له، أي: قال له، وكذلك تنطق أيضاً عند بعض أهل المدن من الفلسطينيين، فهم يقولون: كال، وبرتكان، في قال وبرتقال، وكتله كتلاً في قتله قتلاً(٢).

وذكر "برجشتراسر" في الأطلس اللغوي الذي عمله لسوريا وفلسطين في بداية القرن العشرين بأن نطق القاف همزة يسود معظم مدن سوريا وفلسطين فيما عدا القليل. ونقل عن ليتمان أن المسيحيين في حلب يقلبون القاف همزة(٣).

ومن الملاحظ أن قلب القاف همزة يظهر في اللهجات العامية اللبنانية على نطاق غير محدود، فإذا تكلم لبناني بكلمة فيها قاف فإن القاف تتحول إلى همزة،

(١) محمود الجومرد، اللهجة الموصلية، الموصل، مركز البحوث والآثار الحضارية، ١٩٨٨م، ص٦١.

(٢) أحمد حسين شرف الدين، دراسات في لهجات شمال وجنوب الجزيرة العربية، الرياض، مطابع الفرزدق التجارية، ١٩٨٤م، ص٣٠.

(٣) رمضان عبدالتواب، بحوث ومقالات في اللغة، ص١٠.

إذا كان يتحدث بالعامية اللبنانية، فكلمة قلبي تصبح ألبي، وكلمة يقول تصبح بيئول، وكلمة الباقي تصبح البائي.

وفي الأردن ينطق القاف في البادية وفي لهجات القبائل جيماً مثل الجيم القاهرية على نحو مماثل لما هو موجود عند قبائل الجزيرة العربية المجاورة، وإن كان الغالب على لغة المتعلمين، والذين يعيشون في المدن الأساسية نطق القاف صوتاً لهوياً مهموساً كما ينطق من قبل قراء القرآن المجيدين. وهناك من ينطق القاف همزة مثلما يحدث في أماكن من فلسطين وسوريا ولبنان.

رابعاً: السودان

للقاف ثلاث صور نطق مختلفة في اللهجات السودانية؛ فقد تنطق جيماً كالجيم القاهرية، وهذا هو النطق الغالب في اللهجات السودانية، وقد تنطق كافاً في عدد من الكلمات، وقد تنطق مشوبة بالغين في حالات معينة. ويبدو أن اللهجات العامية السودانية لا تعرف القاف الفصيحة اللهوية المهموسة، كما تؤكد بعض المصادر(١).

أما قلب القاف كافاً في لهجات السودان فيظهر في كلمات قليلة، مثل: كتل، وكِت، برتكان، وفِكيه، أي: قتل، وقت، برتقال، فقيه.

وفيما يتعلق بالقاف المشوبة بالغين التي تخرج من أقصى الحنك رخوة مجهورة، فهي شائعة في لهجات السودان، وتظهر على أشدها في الشرق وفي الشمال، وتقل في الغرب كلما اتجهت إلى دار فور حتى تكاد تختفي عند عرب دار فور.

ويتجلى هذا النطق عندما يحاول أحدهم نطق القاف الفصحى كأن يقرأ نصاً فصيحاً أو يعبر بكلام فصيح، ويرجح أحد الباحثين في اللهجات العربية في السودان أن مصدر هذا النطق مرتبط ببعض اللهجات اليمنية وامتدادها في إثيوبيا المجاورة للسودان؛ حيث لا تزال اللغة التجرينية في إثيوبيا تقلب القاف غيناً على

(١) عبدالمجيد عابدين، من أصول اللهجات العربية في السودان، ص٤٣.

حد قوله، ويذهب صاحب الترجيح السابق إلى القول: بأن أهل اليمن قد نقلوا كلمة (بقل) بالقاف من لغات الحبشة إلى لغتهم، ثم أعاروها أهل الشمال في الجاهلية، فوصلت الحجازيين بالغين، ولا تزال بقايا هذه القاف التي تشبه الغين في بعض اللهجات اليمنية الحديثة في تعز والحجرية، فيقولون: التبغ في التاغة، يريدون الطبق في الطاقة(١).

ويؤكد يوسف الخليفة، أن القاف في العامية السودانية تنطق كافاً مجهورة مثل صوت {g} في الكلمة الإنجليزية go، وهناك من ينطق القاف غيناً صريحة، في مثل: غنبلة، مراغب، غوس، يريد: قنبلة، ومراقب، وقوس؛ ولذلك فالسودانيون في قراءتهم للقرآن يبدلون القاف غيناً أو شيئاً قريباً من الغين، ولكنهم يجعلونها رخوة بدلاً من أن تكون شديدة(٢).

خامساً: مصر

ينطق القاف في لهجة البدو في الساحل الشمالي لجمهورية مصر العربية صوتاً مجهوراً حيناً، وصوتاً مهموساً إذا جاوره صوت مهموس؛ على الرغم من أن القاف في لهجة البدو المذكورين صوت شديد مجهور(٣).

وينطق القاف صوتاً مهموساً في بني سويف، مثل القاف التي ينطق بها القراء والعلماء، وأهل المنيا ينطقونها مشوبة بالكاف مثل ما ينطق بالجيم عوام القاهرة(٤).

وهناك صورة ثالثة لنطق القاف في مصر، وهي نطقها همزة خالصة في العامية

(١) المرجع السابق، ص٤٧.

(٢) يوسف الخليفة أبو بكر، أصوات القرآن، الخرطوم، مكتبة الفكر الإسلامي، ١٩٧٣م، ص٨٢، ف. مارسيه، اللهجات الغربية، ترجمة: حمزة المزيني، الرياض، دار الفيصل الثقافية، ٢٠٠٠م، ص١٢٨.

(٣) عبدالعزيز مطر، لهجة البدو في الساحل الشمالي لمصر، القاهرة، دار المعارف، ١٩٨١م، ص٧٤.

(٤) كمال بشر، علم الأصوات، القاهرة، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، ٢٠٠٠م، ص٢٨٢.

المصرية المنتشرة في الحواضر المصرية(١).

وذكر رمضان عبد التواب أن في اللهجة المصرية كلمتين قلبت فيهما القاف غيناً على هذا النحو هما: يغدر بدلاً من يقدر، وزغزغ بدلاً من زقزق(٢). والصحيح أنه لا إبدال في كلمة زغزغ فهي في الفصحى بالمعنى الذي تستخدم فيه في العامية المصرية، وإنما يقولون في اللهجة العامية: حادغدغك أي: سأشبعك ضرباً، وهي من دقدقه بالقاف بالمعنى ذاته.

وتحول القاف إلى همزة في اللهجات العامية المعاصرة ظاهرة منتشرة في القاهرة وضواحيها وفي القليوبية والواسطي وجزء كبير من الفيوم(٣).

وفي مناطق من الصعيد بمصر يقلب القاف خاء في حالات وصيغ قليلة، في مثل قولهم: دِرْوِخ بدلاً من: ذا الوقت(٤).

سادساً: المغرب العربي

تنطق القاف في لهجة تطوان بالمغرب على ثلاثة أوجه، هي:

- تنطق همزة في كل من تطوان ووزان.

-تنطق جيما قاهرية في الأماكن السهلة غير الجبلية.

- تنطق عربية فصيحة في مناطق الجبال المحيطة بتطوان، أي لهوية مهموسة(٥).

وتذكر بعض المصادر أن تحول القاف إلى همزة موجود في أماكن من بلدان المغرب العربي، مثل: تلمسان بالجزائر، وشمالي مراكش، وعند اليهود في شمالي

(١) المرجع السابق، ص٢٨٣.

(٢) رمضان عبدالتواب، بحوث ومقالات في اللغة، ص١٠.

(٣) المرجع السابق، ص ١٣.

(٤) المرجع السابق، ص ١٣.

(٥) عبدالمنعم سيد عبدالعال، لهجة شمال المغرب، القاهرة، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، ١٩٦٨م، ص٨١.

إفريقيا، وفي اللغة المالطية(١).

وتشير مصادر أخرى أن ظاهرة قلب القاف خاء موجودة في موريتانيا وجنوب مراكش والجزائر، في صيغ وكلمات محددة، مثل: دِرْوِخ، أي: ذا الوقت(٢).

وقد أكد لي أحد الزملاء المغاربة أن هذه الظاهرة موجودة في اللهجات الأطلسية والسوسية والريفية بالمغرب، حيث يقولون: الوخت بدلا من الوقت. وهذه مناطق انتشار اللغات البربرية في المغرب.

مناقشة آراء الفريقين

تناول علماء اللغة القدامى والمحدثون حرف القاف في اللغة العربية بالبحث والدراسة، وتنوعت آراؤهم في هذا الصوت، من حيث الصفة والمخرج؛ فهو صوت مجهور يخرج من أقصى اللسان وما فوقه من الحنك الأعلى عند القدامى، ويأتي في ترتيب الأصوات بعد الغين والخاء، هكذا [غ خ ق ك]، لا قبلهما، كما يرى المعاصرون.

ومن غير شك أن القدامى من علماء العربية، كانوا يتحدثون عن القاف التي كانوا يسمعونها في العربية الفصحى التي كانت سائدة في أزمنتهم، ثم جاء المعاصرون ووجدوا أن القاف الموجودة في العربية الفصحى المعاصرة ليست صوتاً مجهوراً كما جاء عن القدامى، وإنما هي صوت لهوي انفجاري مهموس وفقاً لمقياسهم للجهر والهمس. وللقاف في اللهجات العربية المعاصرة صور شتى من أشكال النطق المختلفة.

بناء على هذا، أخذ علماء اللغة المعاصرون يبحثون في موضوع أصل القاف العربية، والعلاقة بينها وبين هذه الأشكال المختلفة من صور نطقها الموجودة اليوم،

(١) رمضان عبدالتواب، بحوث ومقالات في اللغة، ص١٢، نقلاً عن بروكلمان.

(٢) ف. مارسيه، اللهجات الغربية، ترجمة: حمزة المزيني، الرياض، ص ١٢٨.

وأي هذه القافات يمكن أن تكون هي الأصل، أو القاف الفصحى.

فإبراهيم أنيس يرجح أن القاف الفصيحة كانت صوتاً يشبه القاف المجهورة الموجودة في لهجات السودان وجنوب العراق عند بعض القبائل العربية التي ينطقونها على نحو مخالف لما هو موجود في معظم اللهجات العربية الحديثة، ووصف أنيس هذا النطق للقاف الموجود عند بعض القبائل في السودان والعراق بأنه نوع من الغين.

واستدل على ذلك بخلط الطلاب السودانيين بين القاف والغين في النطق وفي الكتابة، كما يظهر للمعلمين المصريين الذين يدرسون في السودان(١).

ولذلك فهو يفترض أن القاف في العربية الفصحى كانت تشبه هذا الصوت المجهور المسموع من القبائل العربية في السودان، ثم همس مع توالي الأيام، وأصابته صفة الشدة حتى أدى به ذلك إلى ما نعهده فيه اليوم من الهمس في قراءتنا.

ولا أفهم كيف له أن يقرر بأنه لا فرق بين نطق السودانيين للقاف الذي هو نوع من الغين على حد قوله، وبين نطق المجيدين من القراء المصريين للقاف في القرآن الكريم، وقد قال: إن القاف عند السودانيين مجهورة وأميل إلى الرخاوة، والقاف عند القراء المصريين مهموسة بشدة(٢).

ويبدو أن هذا الافتراض لم يكن مقنعاً بدرجة كافية لإبراهيم أنيس نفسه، فطرح فرضية أخرى يرجحها أكثر من الفرضية السابقة، وهي أن القاف القديمة كانت تشبه الجيم القاهرية، ولكنها أعمق منها، وأكثر استعلاء، وهو يستأنس لهذا بنطق البدو الآن للقاف على هذا النحو.

وعليه، فالقاف الفصيحة التي تكلم عنها علماء العربية السابقون ووصفوها بالجهر يمكن أن تكون القاف التي تتحول إلى غين كما يتم في لهجات أهل

(١) إبراهيم أنيس، الأصوات اللغوية، ص٨٥.

(٢) المرجع السابق، ص٨٦.

السودان وبعض أهل العراق، أو هي القاف التي يمثل لها بالجيم القاهرية مع فروق بسيطة تتمثل في استعلائها أكثر، وفي خروجها من موضع أعمق قليلاً من مخرج هذه الجيم القاهرية.

ولإبراهيم أنيس تفسير صوتي لهذا التنوع الحاصل في صور نطق القاف، هو أن مخرج القاف القديمة قد تغير؛ إما بتقدمه إلى الأمام قليلاً، أو بتأخره قليلاً، ففي حالة تأخر المخرج إلى الوراء يتحول إلى همزة؛ لأنها الصوت الوحيد من أصوات الحلق الذي يشبه القاف، ثم لوجود صفة الشدة فيها.

أما إذا تقدم مخرج القاف إلى الأمام قليلا فأقرب مخرج هو مخرج الجيم القاهرية والكاف، فلا غرابة إن تطورت القاف إلى أحدهما. ومن المرجح ـ عنده ـ أن القاف عند البدو قد تطورت على هذه القاعدة، وإذا تقدم مخرج القاف درجة أخرى إلى الأمام تقلب كافاً(١).

ويرجع كمال بشر الخلاف بين العلماء القدامى والمعاصرين في القاف إلى أحد أمرين، الأول: أن يكون العلماء العرب القدامى قد أخطأوا في تحديد المخرج الدقيق للقاف كما يرى بعض المعاصرين، الآخر: أنهم كانوا يتكلمون عن قاف فصيحة أخرى مختلفة عن القاف الفصيحة الحاضرة، وغير بعيد أنها الجاف [G] أو ما يشبه الكاف الفارسية، وهي شبيه بالجيم القاهرية.

وما يقوي هذا الاحتمال ـ عنده ـ أن القاف القديمة مجهورة، وهذه الجاف [G] أيضا تتصف بالجهر والشدة. فإذا كان هذا الاحتمال صحيحاً، فإنه يعني أن علماء العربية القدامى محقون في نعتهم القاف بالجهر، وفي جعلها بعد الغين والخاء، ويكون الصوت الذي وصفوه بالجهر هو (الجاف) أي القاف التي تنطق كالجيم القاهرية. وهذه القاف سائدة في كثير من اللهجات العامية الحديثة في البلاد العربية(٢).

(١) إبراهيم أنيس، الأصوات اللغوية، ص٨٧.

(٢) كمال بشر، الأصوات العربية، ص١١١.

وفي كتاب علم الأصوات رجح كمال بشر وجود لهجتين عربيتين قديمتين، كانت إحداهما تستخدم القاف القصية المجهورة التي يمثل لها بالجيم القاهرية، وتنطبق عليها جملة وصوف القدامى، والأخرى كانت تستخدم القاف اللهوية المهموسة التي أخذ بها قراء القرآن أو جملتهم، وصار توظيفهم لها تقليداً متبعاً في معاهد العلم والجامعات وما أشبه ذلك(١).

وذهب رمضان عبد التواب إلى أن القاف في الأصل صوت شديد مهموس كما تدل مقارنة اللغات السامية؛ على الرغم من عد قدامى علماء العربية القاف صوتاً مجهوراً، فإن صدق وصفهم للقاف بالجهر، فقد بقي هذا النطق المجهور للقاف في أغلب اللهجات العامية المعاصرة .

وبهذا يظهر أن عبد التواب يرجح أن تكون القاف (الجاف) التي تشبه الجيم القاهرية، التي تنتشر في معظم اللهجات البدوية في البلاد العربية هي القاف الفصيحة التي تكلم عنها القدامى من علماء العربية(٢).

أما أحمد مختار عمر فوقف عند نقطتي الخلاف في وصف القاف بين القدامى والمحدثين، وأخذ يتساءل عن أسباب ذلك مفترضا أن القدامى قد يكونون وصفوا قافاً مجهورة قديمة، ثم تطورت حتى صارت مهموسة، أو أنه كانت هناك قافان إحداهما مجهورة، والأخرى مهموسة، وكانت تقلب غيناً أو قريباً من ذلك، أو أنها كانت تنطق جيماً مثل الجيم القاهرية أو قريباً من ذلك.

وعلى ضوء هذا، فإن قلب القاف غيناً أو جيماً هو الأقرب إلى القاف الفصيحة التي تكلم عنها القدامى ووصفوها بالجهر، وكلا الاحتمالين مثل بعضهما؛ لأنهما موجودان(٣).

(١) كمال بشر، علم الأصوات، ص٢٨١ .

(٢) رمضان عبدالتواب، بحوث ومقالات في اللغة، ص٩ .

(٣) أحمد مختار عمر، دراسة الصوت اللغوي، ص٣٤٣ .

أما يحيى عبابنة، فقد تحدث عن وجود ألفونين للقاف العربية، يتمثل أحدهما في النطق المجهور للقاف وهو موجود في اللهجات البدوية والريفية، وقد تكلم عنه القدامى، أما الألوفون الآخر، فيتمثل في النطق المهموس للقاف الذي استقر عليه النظام الصوتي للعربية الفصحى المعاصرة(١).

ويرجح حسام النعيمي أن علماء العربية القدامى كانوا يتكلمون في كتبهم عن قاف من اللهجات العربية القديمة أشبه بالقاف في اللهجة العراقية العامية المعاصرة، وهي صوت مجهور كالجيم القاهرية أو قريبة منها، أو أنهم قد أخطأوا في وصف مخرج القاف التي تكلموا عنها.

والواضح من كلامه أنه يرجح الاحتمال الأول الذي يفترض أن السابقين كانوا يصفون قافاً مجهورة بالفعل كانت موجودة في لهجة من اللهجات القديمة، وهي اليوم موجودة في اللهجة العراقية العامية(٢).

وفي رأي عبد المجيد عابدين: أن القاف الفصيحة التي ننطقها اليوم لا تمثل النطق الذي كان شائعاً عند الفصحاء القدامى من الحجازيين في صدر الإسلام، فقد وصفت القاف في المصادر القديمة بأنها شديدة مجهورة في حين أنها اليوم شديدة مهموسة، وهذا يعني أنها كانت في الفصحى خلال القرون الأولى صوتاً مجهوراً، يشبه إلى حد بعيد صوت القاف، الذي ينطقه أهل السودان وصعيد مصر، وأكثر أرياف الجزائر(٣).

ويفهم من كلام ابن خلدون الذي جاء في المقدمة، أن القاف الأصلية هي صوت بين القاف والكاف، وكانت مستخدمة عند البدو من مضر في زمانه، وبها

(١) يحيى عبابنة، دراسات في فقه اللغة والفنولوجيا العربية، عمان، دار الشروق للنشر والتوزيع، ٢٠٠٠م، ص٢٠٨.

(٢) حسام النعيمي، الدراسات اللهجية والصوتية عند ابن جني، بغداد، دار الرشيد، ١٩٨٠م، ص٣١٤.

(٣) عبدالمجيد عابدين، من أصول اللهجات العربية في السودان، ص٤٣.

يتميزون عن الحضر، وهي غير القاف الموجودة عند أهل الأمصار، وغير القاف التي تكلم عنها العلماء في كتبهم،ووصفوها بالجهر، ولكنه لم يذكر شيئاً عن صفة أو مخرج أو ترتيب هذه القاف التي كان يرى أنها القاف العربية الأصيلة.

وفي الحقيقة ليس ابن خلدون وحده من جاء بكلام عام عن هذه القاف التي ورد ذكرها في مصنفات بعض العلماء القدامى، بل كل الذين تحدثوا عن قاف غير القاف المعيارية التي تكلم عنها العلماء الأوائل لم يحددوا صفة هذه القاف أو مخرجها أو ترتيبها، إنما اكتفوا بالإشارة إلى وجودها عند هذه القبيلة أو تلك.

ومن الممكن أن تكون القاف التي تقلب جيماً في أكثر اللهجات العربية المعاصرة هي القاف التي تكلم عنها بعض هؤلاء القدامى كابن خلدون والمقري وابن تغري، وأبو حيان؛ لأن هذه القاف التي تنطق جيماً موجودة اليوم أيضاً عند قبائل كلها بدوية أو متأثرة بالبادية أو منحدرة منها، واستمرار وجودها عند القبائل البدوية والريفية في أماكن مختلفة من البلاد العربية أمر يمكن افتراضه؛ لأنه لا يتصور فقدان هذا الصوت الذي تكلم عنه هؤلاء العلماء المتأخرون من اللهجات التي كان يوجد فيها، وهي لهجات قبائل غير حضرية تأثرها اللغوي بالآخرين يكون قليلاً؛ نظراً لطبيعة معيشتها وانعزالها ومالها من قيم ذاتية تفرض عليها الاستمساك بكل ماعندها من خصائص لغوية وعادات اجتماعية.

ثم إن وجود هذا النطق للقاف في جميع اللهجات البدوية في الجزيرة العربية وخارجها مؤشر على أنه يمثل ظاهرة لغوية كانت موجودة من قديم، الأمر الذي يقوي هذا الافتراض ويجعل من الممكن قبوله.

ومن الممكن أيضاً أن بعض من تحدث عن قاف تقلب كافاً كان يقصد بذلك ظاهرة قلب القاف كافاً وهي ظاهرة موجودة في اللغة العربية، وفي بعض اللهجات العامية المعاصرة، وهذا راجع إلى ظاهرة التبادل اللغوي بين القاف والكاف، بسبب

مابين الصوتين من تشابه في الصفة والمخرج.

ولكن مع هذا، فعلينا أن ننتبه ـ أيضاً ـ إلى أن كتابة القاف التميمية كافاً ليس من باب الإبدال في كل مرة، وإنما قد يجيء بسبب طبيعة الكتابة العربية التي ليس فيها رمز يعبر بدقة عن هذا الصوت الموجود عند تميم وأسد، فعبر عنه كتابة بالكاف، وهو ليس كافاً؛ ذلك بأن القاف التميمية تمثل نطقاً خاصاً مستقلاً بالقاف في أفواه بني تميم، ويتميز في صفته ومخرجه عن كل من: القاف والكاف العاديتين، في حين أن قلب القاف كافاً يمثل ظاهرة لغوية عند غيرهم بسبب مابين الصوتين من تقارب في الصفات والمخرج(١).

القاف في الألسن العربية الجنوبية المعاصرة

يمثل القيام بدراسة مقارنة للقاف في اللغة العربية الفصحى واللهجات القديمة والحديثة قضية أساسية قامت من أجلها هذه الدراسة، وقد رأيت أن تناول صوت القاف في الألسن العربية الجنوبية المعاصرة (المهرية، والجبالية، والحرسوسية، والبطحرية، والسقطرية، والهبيوتية) وإدخاله في هذه الدراسة للمقارنة سيكون إضافة مفيدة للبحث؛ لكون هذه الألسن تمثل امتدادا للسان العربي الجنوبي القديم، شقيق اللسان العربي المبين الذي نزل به القرآن، وهي لا تزال حية مستخدمة في اتصالات الناس اليومية في مناطق قصية ونائية أو منعزلة من عمان واليمن بين مجموعات من القبائل العربية الجنوبية إلى جانب العربية الفصحى لغة العبادة والعلم والتدوين والكتابة في هذه المناطق. يضاف إلى هذا أن هذه الألسن لا تزال تحتفظ بسمات وظواهر لغوية قديمة فقدتها العربية الفصحى واللهجات العامية المعاصرة.

والقاف في هذه الألسن صوت انفجاري طبقي، يتم نطقها عن طريق حبس الهواء بين فتحة المزمار والمخرج، ويكون مصدر تيار الهواء عند النطق بها من الفم،

(١) غالب فاضل المطلبي، لهجة تميم وأثرها في العربية الموحدة، ص١٠٥.

وليس من الرئتين كسائر الأصوات، وقد أثبتت التجربة المعملية باستخدام جهاز رسم تدفق الهواء وضغطه KYMOGRAPH وكذلك جهاز الرسم الطيفي للأصوات SPECTROGRAPH أن هناك ضعفاً في الشكل الموجي للصائت [a] الذي يسبق الصامت، وهذا يعني قلة الجهر وقلة تدفق الهواء من الحنجرة،ويكون تدفق تيار الهواء من الفم في أعلى درجاته. انظر الشكل (رقم ١).

وتظهر الصورة الطيفية لهذا الصوت أن هذه القاف المحنجرة يكون الصائت [a] الذي يسبق الصامت فيها ضعيفاً بعض الشيء، ويتضح ذلك من خلال ضعف الحزم formants. وهذا شيء متوقع فهذه القاف المحنجرة تلفظ والحنجرة تكون هي مصدر الهواء، أي أن الإغلاق يتم في منطقة الحنجرة والطبق مما يضعف من مقدار الهواء القادم من الرئتين عند نطق هذا الصوت. انظر شكل (رقم ٢)(*).

ويمكن القول: بأن هذه القاف مختلفة عن الكاف ومختلفة عن القاف اللهوية المهموسة ومختلفة عن القاف الحنكية المجهورة التي تماثل الجيم القاهرية.. وهي ليست غيناً كذلك، إنما هي صوت مستقل متميز عن غيره، ويكاد يكون موجوداً في كل كلمة فيها قاف في هذه الألسن، سواء في لغة الشعر أم في لغة النثر والحديث العادي.

ولقد سمعت مثل هذا الصوت من بعض أهل اليمن من منطقة تهامة، أثناء قيامي بزيارة علمية إليها عام ٢٠٠٤م، وبدا لي من هؤلاء الأشخاص أن هذا النطق للقاف بدأ ينحسر، و هو ليس واسع الانتشار، فلقد شعرتُ أن هناك رغبة في إخفاء هذا النطق عند هؤلاء الأشخاص حينما كنت أطلب منهم إعادة نطقه؛ وتفسيري لذلك أن هؤلاء يدركون أن هذا النطق للقاف مختلف ومميز عن النطق

(*) أشكر الزميل د. عبدالله السقاف على ما قدمه لي من جهد في إجراء التجارب المعملية وتحليل نتائجها في معمل الصوتيات بكلية الآداب والعلوم الاجتماعية بجامعة السلطان قابوس، كما أشكر أ.د. عبدالحليم حامد على توجيهاته وملاحظاته.

الذي يسمعونه في الإعلام والمجتمع، ولذلك يحاولون إخفاءه، ويستبدلونه بالنطق الشائع للقاف في بلادهم. ولا يزال ممكناً سماع هذه القاف في اللهجة الظنية ببادية حضرموت عند بعض القبائل، وفي اللهجة الكثيرية ببادية ظفار في سلطنة عمان.

وللقاف في لسان ظفار الحميري المعاصر (الجبالية) شكل آخر، يظهر في كلمات قليلة؛ حيث ينطق صوتاً مهموساً نصلياً ـ لثوياً مزجياً، يتم نطقه عن طريق حبس الهواء في فتحة المزمار ومخرج الصوت، ويكون مصدر الهواء من الفم عند النطق به، وليس الرئتين. ومن الكلمات القليلة التي يظهر فيها هذا النطق كلمة (قِرتْ) بمعنى مدينة أو بمعنى بلدة، وكذلك كلمة (قِريبْ) بمعنى ندب أو جرح لم يندمل، وكذلك (بقع) جمع (بقعت) بمعنى بقعة أو حيز من مكان، وكذلك كلمة (مقهب) بمعنى مقيل، وكلمة (مشقف) بمعنى جذع طويل يحمل سقف البيت.

وهذا الصوت فيه درجة من الإغلاق التام للهواء ثم إطلاق تدريجي للهواء يظهر على شكل ضوضاء خفيفة. وقد سمعت نطقاً للقاف من صديق إماراتي عندما ينطق كلمة: صدق، فكأنه نطق صورة القاف التي أتكلم عنها.

نتائج الدراسة

تتمثل أهم النتائج التي توصلت إليها هذه الدراسة، فيما يلي:

أولاً: تنوع أشكال نطق القاف يمثل ظاهرة قديمة في اللغة العربية؛ فلا توجد في هذه اللغة صورة نموذجية موحدة لنطق القاف، تكون هي السائدة والمنتشرة في كل مستوى لغوي وفي كل لهجة. وهذا ينطبق على العربية الفصحى القديمة، والعربية الفصحى المعاصرة، واللهجات القديمة واللهجات العامية الحديثة والمعاصرة.

ثانياً: لقد تركز كلام علماء العربية القدامى على شكل واحد من أشكال نطق القاف وهو القاف الذي يمثل النطق النموذجي المعياري للعربية الفصحى في نظرهم، وقد حددوا مخرج وصفة وترتيب هذه القاف في مصنفاتهم وكادوا

يتفقون في كل ما يتعلق بهذه القاف التي يجمعون على أنها كانت صوتاً مجهوراً، يخرج من أقصى اللسان وما فوقه من الحنك الأعلى، وهي تأتي بعد الغين والخاء، هكذا: (غ خ ق ك).

ثالثا: يجمع علماء اللغة المعاصرون على أن صورة القاف اللهوية المهموسة التي يرمز لها بالحرف [q] في الكتابة الصوتية الدولية، تمثل القاف النموذجية للعربية الفصحى المعاصرة؛ على الرغم من تناولهم لأشكال نطق القاف الأخرى. وأظهرت التجربة المعملية أن هذا الصوت لا جهر فيه كما لا تظهر فيه أي نفسية ASPIRATION. انظر الشكل (رقم ٣).

رابعاً: القاف الفصيحة عند القدامى مجهورة، والقاف في العربية الفصحى المعاصرة مهموسة، وهذه نقطة خلاف أساسية بين القدامى والمعاصرين، وسببها يرجع إلى اختلاف طريقة القدامى عن طريقة المعاصرين في تحديد الجهر والهمس، فالمهموس عند المعاصرين كل صوت لا يحدث عند النطق به اهتزاز وتذبذب للوترين الصوتيين، والمجهور هو كل صوت يحدث تذبذب واهتزاز للوترين الصوتيين عند النطق به. أما المجهور عند القدامى فهو صوت أشبع الاعتماد عليه في موضعه، ومنع النفس أن يجري معه، والمهموس حرف أضعف الاعتماد عليه في موضعه حتى جرى النفس معه(١).

خامسا: حددت هذه الدراسة ضابط الجهر والهمس عند القدامى بشكل واضح باستخدام طريقتين هما: خفض الصوت بالحرف المراد تحديد صفته إلى أدنى درجات الخفض، ثم تكراره والنطق به، فإذا أمكن نطقه بهذه الطريقة فهو صوت مهموس، وإذا لم يكن ممكناً نطقه بهذه الطريقة فهو صوت مجهور(٢).

(١) الزمخشري، أبو القاسم محمود بن عمر، المفصل في علم اللغة، بيروت، دار إحياء العلوم، ١٩٩٠، ص٤٦٥.

(٢) عبد العزيز الصيغ، المصطلح الصوتي في الدراسات العربية، دار الفكر، دمشق، ٢٠٠٠م، ص ١٠٥.

والطريقة الأخرى للتمييز بين الصوت المجهور والمهموس تكون بوضع الكف على الفم، ثم النطق بالصوت المراد تحديد صفته وملاحظة الهواء الخارج من الفم عند النطق، فإذا كان هذا الهواء خافتاً ضعيفاً لا يكاد المرء يشعر به على كفه فإن الصوت المنطوق حينئذ يكون صوتا مجهوراً، وإذا كان الهواء الخارج من الفم عند النطق بالصوت واضحاً بحيث يمكن ملاحظته والإحساس بأثره على الكف الموضوعة على الفم، يكون الصوت المنطوق حينئذ صوتاً مهموساً. وقد ظهر من خلال نتائج التجارب المعملية التي قمنا بها في معمل الأصوات أن الأصوات المجهورة يكون الهواء الذي يخرج من الفم عند النطق بها أضعف من الهواء الذي يخرج من الفم عند النطق بالأصوات المهموسة.

وقد جربت الطريقتين فوجدت أن كلاً من (أ، ع، غ، ق، ج، ي، ض، ل، ن، ر، ط، د، ز، ظ، ذ، ب، م، و، ي في مثل ولد ويترك) أصوات مجهورة بالفعل؛ حيث يكون عليها ضغط وارتكاز في مواضع خروجها، ويخرج الهواء من الفم عند نطقها خافتاً ضعيفاً لا تكاد تشعر به على كفك إذا وضعتها على فمك. ومن ضمن هذه الأصوات صوتا (ق، ط) اللذان أشكل على المعاصرين وصفهما من قبل القدامى بالجهر. وكذلك وجدت أن جميع الأصوات المهموسة التي تجمع في (سكت فحثه شخص) لا يكون ضغط على مخارجها أثناء النطق بها، والهواء يجري من الفم ويخرج بصورة واضحة إلى حد يمكن للمرء أن يشعر به إذا وضع كفه على فمه ونطق بالصوت على نحو منخفض أو خافت.

وعليه، فإن معظم أشكال نطق القاف التي قامت هذه الدراسة بحصرها مجهورة، سواء قاف الفصحى المعاصرة وهي صوت لهوي مهموس بحسب مفهوم المعاصرين للجهر والهمس، والقاف التي تنطق جيماً حنكية كالجيم القاهرية، والقاف التي تنطق كافاً عادية، والقاف التي تنطق جيماً معطشة، والقاف التي

تنطق غيناً عادية، والقاف التي تنطق همزة، والقاف التي تنطق مزجية مركبة، والقاف التي تنطق لثوية نصلية مزجية، والقاف المحنجرة الموجودة في لهجة تهامة باليمن واللهجة الظنية في حضرموت، وبعض اللهجات بجنوب السعودية، والألسن العربية الجنوبية المعاصرة.

ولا يستثنى من هذا إلا القاف التي تنطق كافاً فالهمس فيها واضح ولا خلاف فيه، وكذلك القاف التي تنطق خاء.

من ينظر إلى الأساس الذي يفرق به القدامى بين الصوت المجهور والصوت المهموس يظهر له أنهم سلكوا طريقة سهلة؛ حيث إنهم جعلوا جري النفس مع الحرف أو عدمه ضابطاً للتمييز بين المجهور والمهموس؛ فالصوت المهموس تقدر على خفض صوتك به إلى مستوى الهمس، ثم تسمعه بوضوح كما هو من غير أن يتغير أو يتحول. فالتاء على سبيل المثال، تبقى كما هي مهما خفضت صوتك بها، وكذلك بقية الأصوات المهموسة. أما الصوت المجهور فلا تقدر على خفض صوتك به إلى مستوى الهمس؛ لأنه حينئذ يتحول إلى صوت آخر، ولا يبقى على حالته، انظر إلى الدال والطاء وهما من مخرج التاء، فإنك إذا خفضت صوتك بهما إلى مستوى الهمس يتلاشيان ويتحولان إلى تاء، والتاء تبقى على حالتها ولا تتغير.

وبهذه الطريقة حدد القدامى الأصوات المجهورة والمهموسة، دون الاعتماد على اهتزاز الوترين الصوتيين اللذين لا تراهما العين، ولا يعرف عملهما إلا باللجوء إلى أدق الأجهزة.

وكذلك كانوا يميزون بين الأصوات المجهورة والأصوات الشديدة؛ فالصوت الشديد: صوت اشتد لزومه لموضعه، وعند النطق به يحصر صوت الحرف في مخرجه فلا يجري. والأصوات الشديدة تجمع في قولك (أجدت طبقك)، فمثلا إذا وقفت على الدال أو الجيم أو التاء في العد والحج والبت، تلاحظ أن صوت

الدال والجيم والتاء عندما تقف عليه في الكلمات السابقة راكد ومحصور،لا تقدر على مده(١).

سادسا: من المستبعد أن تكون القاف التي تكلم عنها القدامى ونعتوها بالمجهر قد فقدت من اللغة العربية واندثرت، كما يفترض البعض، أو أنها تطورت وتغيرت إلى أحد هذه الأشكال المعاصرة للقاف فابتعدت عن أصلها القديم نتيجة هذا التطور؛ ذلك بأن ما جاء في كلام القدامى من أوصاف عن القاف القديمة يجعلها لا تخرج عن إحدى صور نطق القاف الآتية،وهي:

أ- القاف الطبقية المجهورة التي يمثل لها بالجيم القاهرية أو بالصوت [g] في كلمة go؛ فهي صوت مجهور عند الفريقين كل حسب طريقته في تحديد الجهر، وهي كذلك موصوفة من قبلهما بأنها حنكية قصية. ويظهر من الرسم الطيفي أن درجة الجهر في هذا الصوت في منتهى الوضوح. انظر الشكل (رقم ٤).

وإذا نظرت إليها من حيث الاستعمال والانتشار فإنها تكاد تكون أكثر صور نطق القاف انتشاراً واستعمالاً في اللهجات العامية الحديثة والمعاصرة؛ فهي منتشرة في لهجات العراق، ولهجات المغرب الأقصى، ولهجات السودان العربية، فضلا عن انتشارها الواسع في معظم لهجات البوادي والأرياف في جزيرة العرب، التي هي منشأ العربية الأول وموطن أهلها الأصليين.

ومن المؤكد أنه ما كان لها أن تظل على هذا النحو من الانتشار الواسع في لهجات الوطن العربي من شرقه إلى غربه، ومن شماله إلى جنوبه، إلا إذا كانت أصيلة وقديمة، ولا أستبعد أنها كانت موجودة في لهجة أو أكثر من لهجات نجد والحجاز القديمة التي كانت مقبولة عند العلماء، وعكست العربية الفصحى كثيراً من خصائصها وسماتها، ولكن نطق هذه اللهجة للقاف لم يدخل إلى العربية

(١) الزمخشري، المفصل في علم اللغة، ص ٤٦٦.

الفصحى المشتركة، ولكنه بقي في اللهجات العامية البدوية والريفية.

ج – القاف اللهوية المهموسة التي تعد قافاً فصيحة في زماننا، تقترب بعض أوصافها من القاف التي تكلم عنها القدامى، فهي تخرج من اللهاة عند المعاصرين باتفاق، وقد ذكر الخليل أن القاف التي تكلم عنها لهوية، مع أن معنى اللهاة عند القدامى لا يتطابق مع معناها عند المعاصرين، ولكن هذا يشير إلى أن القاف التي تكلم عنها القدامى ليست بعيدة عن القاف المعاصرة.

ومن الممكن جداً أن القدامى لما تكلموا في كتبهم عن القاف لم يكونوا يتكلمون عن قاف أخرى فقدت من العربية المعاصرة أو تطورت إلى شكل جديد مختلف عن أصلها، وإنما كانوا يتكلمون عن هذه القاف اللهوية المهموسة، ولكن الأمر الذي أدى إلى الاختلاف بين القدامى والمعاصرين هو اختلاف ضابط الجهر والهمس عند كل فريق؛ فضابط الجهر والهمس عند القدامى جعل القاف صوتاً مجهوراً، وضابط الجهر والهمس عند المعاصرين جعل هذه القاف صوتا مهموسا؛ فالجهر عندهم غير الجهر عندنا اليوم.

وبهذا يزول الإشكال الحاصل من وصف القدامى للقاف بالجهر؛ إذ إن وصفها بالجهر ليس خطأ كما ذهب بعض المعاصرين، ولكن الخطأ نتج عن عدم فهمنا لطريقة القدامى في ضبط الجهر والهمس، واقتصارنا في تحديد صفتها على طريقة المعاصرين التي تقوم على اهتزاز الوترين الصوتيين عند النطق بالأصوات المجهورة.

ومما يرجح أن القدامى كانوا يقصدون هذه القاف اللهوية انتشار هذه القاف في الفصحى المعاصرة بكل مستوياتها، وخاصة عند قراء القرآن الكريم المجيدين في كل بلد عربي ومسلم؛ فالقراء يتلقون القرآن مشافهة وفقاً لأحكام التجويد التي تراعي النطق الصحيح للأصوات، على الرغم من أن الأصوات تتطور وتتبدل، إلا أن نقل القرآن مشافهة من جيل إلى جيل بهذه الطريقة قد حفظ معظم الصفات

والخصائص الصوتية لأصوات العربية الفصحى القديمة التي نزل بها القرآن الكريم، ولم لا يكون صوت القاف اللهوية واحداً من هذه الأصوات التي حفظت التلاوة نطقها.

ب- القاف المحنجرة التي توجد في بعض لهجات اليمن، وعمان، والسعودية، والألسن العربية الجنوبية المعاصرة قريبة جداً من القاف التي تكلم عنها القدامى، من حيث مخرجها وترتيبها وصفة الجهر فيها إذا اتبعنا طريقة القدامى في تحديد الجهر والهمس. فقد نعت القدامى القاف التي تكلموا عنها بالجهر، وقالوا بأنها تخرج من أقصى اللسان وما فوقه من الحنك الأعلى، وهي في الترتيب قبل الكاف وبعد الغين والخاء لا قبلهما، هكذا: (غ خ ق ك). وهذه الصفات التي توجد في القاف القديمة موجودة في هذه القاف المحنجرة الموجودة في لهجة تهامة وفي لهجة من لهجات جنوب السعودية، والألسن العربية الجنوبية المعاصرة. وقد ظهر من التجربة المعملية أن الجهر ضعيف وقليل في هذه القاف المحنجرة الموجودة، والقاف اللهوية المعاصرة ليس فيها جهر.

فهل يمكن القول: إن القاف التي تكلم عنها علماء العربية القدامى فقدت بعض صفاتها في نطاق العربية الفصحى المعاصرة، ولكنها بقيت على أصلها في لهجة بتهامة غرب اليمن، ولهجة أخرى جنوب المملكة العربية السعودية وفي الألسن العربية الجنوبية المعاصرة عند قبائل عربية جنوبية في مناطق من اليمن والسعودية وعمان؟ ألا يدل هذا على أن تطوراً كبيراً حصل للأصوات العربية خلافاً للمتوقع؟ إن الأمر الذي نعتقده أن الأصوات العربية قد حصل لها ما يحصل لأصوات أية لغة من التطور والتغير نتيجة عوامل مختلفة، فهي ليست بدعاً من اللغات، ولكننا لا نستطيع تحديد نوع وحجم كل هذه التطورات في الأصوات العربية في هذه الدراسة المعنية بصوت واحد من أصوات العربية. وما يمكن تأكيده

هو أن هذه القاف المحنجرة تمثل شكل نطق قديم لصوت القاف؛ نظراً إلى انتشارها في كل الألسن العربية الجنوبية المعاصرة المتصلة بالعربية الجنوبية القديمة أو المنبثقة عنها، وكذلك لوجودها في لهجة بتهامة في غرب اليمن، ولهجة في جنوب السعودية، وفي اللهجة الظنية الموجودة عند قبائل يمنية وعمانية. وأحسب أن بقاءها في بيئات لغوية في مناطق من الجزيرة العربية، يشير إلى أنها ليست ناتجة عن تطور صوتي، وإنما هي نطق خاص للقاف، ليس ببعيد أنه الأقدم من بين سائر الأشكال الأخرى. ولعل هذه القاف هي القاف التي رأى ابن خلدون أنها كانت منتشرة عند جيل من العرب تميزهم عن غيرهم ولا يشاركهم فيها أحد، وهي تميز العربي الصريح من الدخيل. وقد وصفها بأنها بين القاف والكاف. ومن يعرف نطق هذه القاف الموجودة في لهجة بتهامة ولهجة بجنوب والألسن العربية الجنوبية يشعر بأنها بين الكاف والقاف فعلاً، ثم إنها محصورة في هذه الألسن العربية الجنوبية واللهجات العامية عند قبائل عربية جنوبية في جزيرة العرب.

سابعاً: يبدو أن صور نطق القاف مرتبطة ببعضها ومنبثقة عن بعضها نتيجة ما تتعرض له الأصوات من تطورات وتغيرات. فنطق القاف كافاً، ونطقها صوتاً مركباً على شكل [dz]، أو على شكل [j] كما في كلمة jump الإنجليزية، مرتبط بنطقها [g] في كلمة go، مع الفرق بينها في المخرج. حيث تقدم مخرجها إلى الأمام باتجاه الفم. ونطقها همزة مرتبط بنطقها من اللهاة، فهي لا تقلب همزة إلا في البيئات اللغوية التي تكون فيها القاف لهوية كالقاهرة ودمشق وبيروت وأماكن أخرى في بلاد الشام. ففي هذه البيئات يرجع مخرجها إلى الوراء قليلاً نحو الحلق، ونطقها غيناً لا يكون غالباً إلا في البيئات التي تسود فيها القاف المجهورة التي يمثل لها بالجيم القاهرية، حيث يقوم المتحدثون بتغيير نطقهم للقاف المجهورة التي تعودها حينما يقرؤون أو يتكلمون بالفصحى مع غيرهم من أبناء اللهجات

الأخرى، فيصعب عليهم ذلك فينطقونها غيناً بدلاً من القاف المهموسة اللهوية التي يرومون نطقها فلا يستطيعون. ونطق القاف خاء مرتبط بنطقها غيناً أو همزة. وظاهرة نطق القاف خاء غير منتشرة وتكاد تكون في مناطق من المغرب العربي، وغالباً في المناطق التي يتركز فيها البربر كما أخبرني غير واحد من المغاربة، حيث إن للناس لغاتهم البربرية الخاصة هناك، وهي لها أصوات وقواعد مختلفة عن العربية. أما وجودها في بعض بيئات الصعيد بمصر فالأقرب أن ذلك بسبب أن صوت القاف في الصعيد صوت مجهور كالجيم القاهرية، فإذا أرادوا نطق القاف اللهوية التي في العربية الفصحى المعاصرة الفصحى، تكلفوا ذلك ونطقوها غيناً، وقد ينطقها بعضهم خاء في كلمات قليلة، والتقارب بين الغين والخاء يبرر مثل هذا التحول إن حدث. وكل صور نطق القاف تكاد تكون متطورة عن بعضها ماعدا القاف التي يمثل لها بالجيم القاهرية، والقاف اللهوية الموجودة في الفصحى المعاصرة، والقاف الموجودة في لهجة تهامة وبعض مناطق جنوب السعودية.

ثامنا: قد تصبح الغين المبدلة من القاف ـ مع مرور الوقت ـ سائدة في كل مستوى لغوي عند أصحاب بعض اللهجات، الذين تحضروا وابتعدوا عن بيئاتهم الأصلية التي هي بيئات ريفية وبدوية ينطق القاف فيها جيماً، فكثير من الذين يقلبون القاف غيناً ـ إن لم يكونوا كلهم ـ إنما يفعلون ذلك بسبب وجود نطق للقاف عندهم في لهجاتهم، لكنهم يتخلون عنه عندما يستخدمون العربية الفصحى ظنا منهم أن النطق الذي عندهم في لهجاتهم لا يصلح استخدامه في الفصحى، فيحاولون تقليد القاف التي يرون أنها المناسبة للفصحى، فيقلبون القاف غيناً؛ لأن مخرجها وصفتها قريبان من مخرج وصفة القاف اللهوية التي يحاولون نطقها فلا يستطيعون؛ بسبب أن هذه القاف اللهوية المهموسة الموجودة في الفصحى المعاصرة ليست موجودة في لهجاتهم، ولم يتعودا عليها في نطقهم.

والتحول إلى الغين بدل القاف عند هؤلاء يمر بمراحل، ففي البداية يكون تقليداً ومحاكاة للقاف الفصيحة المهموسة التي تنتشر في وسائل الإعلام وعند المتعلمين، حيث يشعر هؤلاء بضرورة النطق بهذه القاف المهموسة مجاراة للمتعلمين ووسائل الإعلام، وربما خوفاً من التعرض للسخرية من غيرهم إذا نطقوا القاف جيماً كما تعودوا في لهجاتهم. وفي المرحلة الثانية تفقد بعض الأجيال صلتها بلهجاتها الأصلية ويكونون بيئات لهجية جديدة في الحواضر التي انتقلوا إليها يصبح فيها نطق القاف غيناً أمراً سائداً وأصلاً لا فرعاً. وقد لاحظت بوادر هذه الظاهرة في لهجة بعض الحضر في الكويت وقطر والبحرين والإمارات وعدن في اليمن وصور في عمان، فهؤلاء لا يستخدمون قافاً مهموسة ولا جيما مجهورة، وإنما غدت الغين بديلاً للقاف في لهجة هؤلاء في كل مستوى لغوي تقريباً، وكل هذا نتيجة تأثير التعليم الذي يتم بالفصحى المعاصرة ووسائل الإعلام المختلفة.

شكل رقم ١ : تدفق الهواء وضغطه في القاف المحنجرة

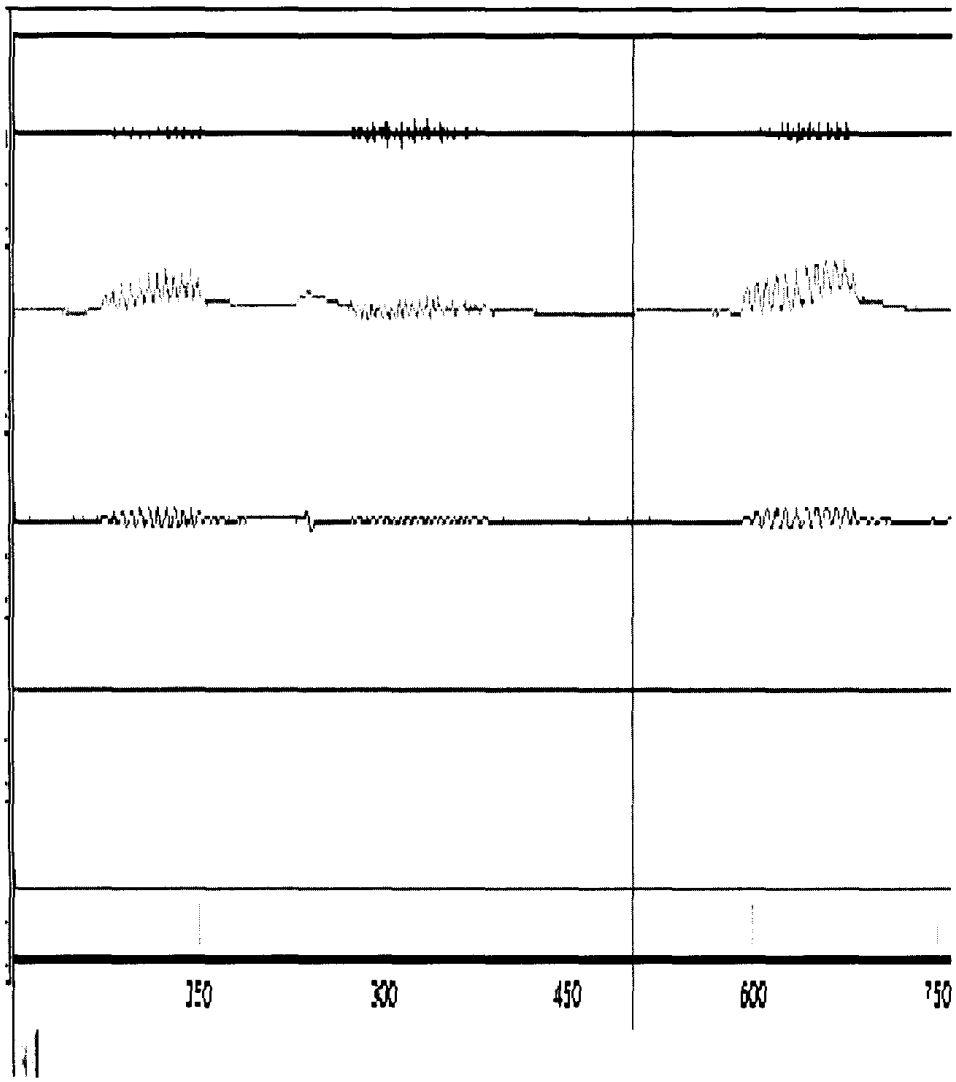

شكل رقم ٢ : الرسم الطيفي للقاف المحنجرة

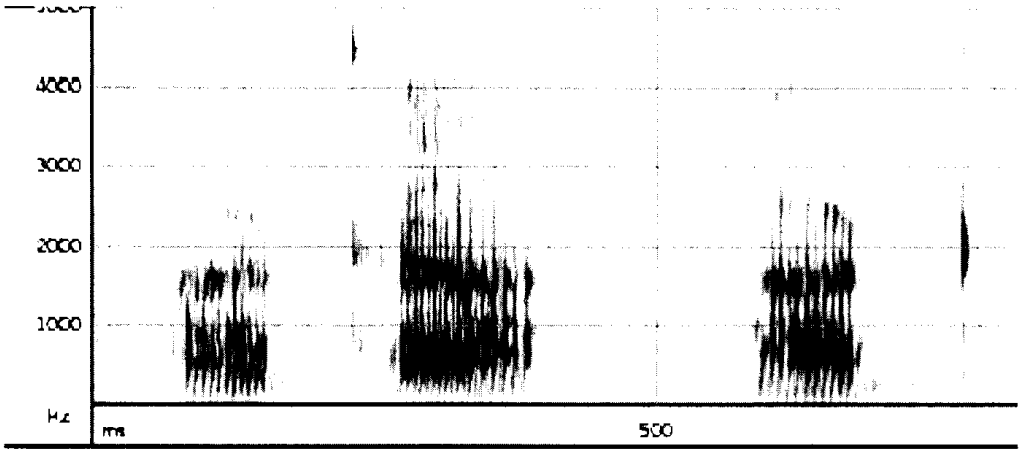

شكل رقم ٣ : الرسم الطيفي للقاف اللهوية [q]

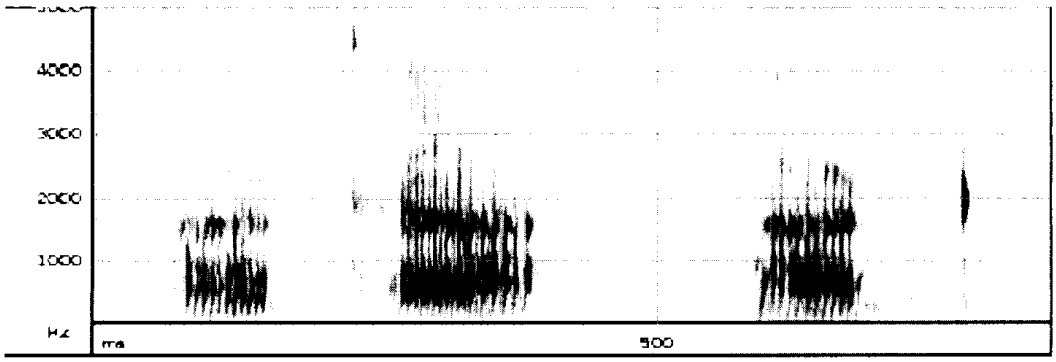

شكل رقم ٤ : الرسم الطيفي للقاف [g]

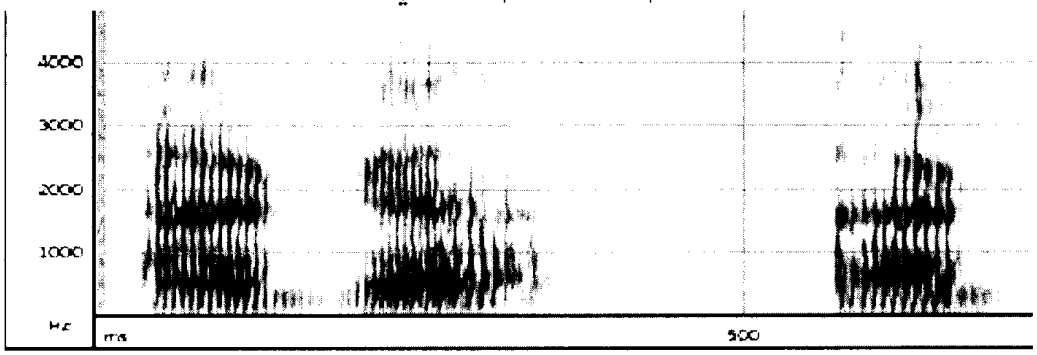

المصادر والمراجع

١- إبراهيم أنيس، الأصوات اللغوية، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٩٥م.

٢- أحمد حسين شرف الدين، دراسات في لهجات شمال وجنوب الجزيرة العربية، ط١، مطابع الفرزدق التجارية، الرياض، ١٩٨٤م.

٣- أحمد عبد الرحمن حماد، الخصائص الصوتية في لهجة الإمارات العربية المتحدة، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ١٩٨٦م.

٤- أحمد علم الدين الجندي، اللهجات العربية في التراث، القسم الأول، الدار العربية للكتاب، ليبيا، ١٩٨٣ م.

٥- أحمد مختار عمر، البحث اللغوي عند العرب، عالم الكتب، ط٦، القاهرة، ١٩٨٨م.

٦- أحمد مختار عمر، دراسة الصوت اللغوي، عالم الكتب، القاهرة، ١٩٩٧م.

٧- بروس إنغام، قبيلة الظفير: دراسة تاريخية لغوية مقارنة، ترجمة :عطية الظفيري، ط٢، الرياض، ١٩٩٥م.

٨- ابن تغري، أبو المحاسن، يوسف ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، طبعة مصورة عن طبعة دار الكتب، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، القاهرة، بدون تاريخ.

٩- تمام حسان، مناهج البحث في اللغة، دار الثقافة، الدار البيضاء، ١٩٧٩م.

١٠- ابن الجزري، الحافظ أبوالخير محمد بن محمد الدمشقي، النشر في القراءات العشر، دار الكتب العلمية، بيروت، بدون تاريخ.

١١- ابن جني، عثمان، سرصناعة الإعراب، تحقيق :حسن هنداوي، دار القلم، دمشق، ١٩٨٥م.

١٢- جونستون، ت، م، دراسات في لهجات شرقي الجزيرة العربية، ط٢، ترجمة:

أحمد الضبيب، الدار العربية للموسوعات، بيروت، ١٩٨٣م.

١٣- حسام النعيمي، الدراسات اللهجية والصوتية عند ابن جني، دار الرشيد، بغداد، ١٩٨٠م

١٤- ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد، المقدمة، دار الجيل، بيروت، بدون تاريخ.

١٥- دراسات في تأريخ اللغة العربية، ترجمة: حمزة المزيني، ط١، دارالفيصل الثقافية، الرياض، ٢٠٠١م.

١٦- ابن دريد، أبو بكر محمد بن الحسن، جمهرة اللغة، الجزء الأول، دار صادر، بيروت، بدون تاريخ.

١٧- رمضان عبد التواب، بحوث ومقالات في اللغة، ط٣، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٨٥م.

١٨- الزمخشري، أبو القاسم محمود بن عمر، المفصل في علم اللغة ، تحقيق: محمد عز الدين السعيدي، ط١، دار إحياء العلوم ، بيروت، ١٩٩٠م.

١٩- سباتينو موسكاتي، وآخرون، مدخل إلى نحو اللغات السامية، ترجمة: مهدي المخزومي وعبد الجبار المطلبي، ط١، عالم الكتب، بيروت، ١٩٩٣م.

٢٠- سيبويه، أبو بشر عمرو بن عثمان، الكتاب، تحقيق: عبد السلام هارون، ط١، دارالجيل، بيروت، ١٩٩١م.

٢١- ابن سينا، أبوعلي الحسين، أسباب حدوث الحروف، تصحيح: محب الدين الخطيب، مطبعة المؤيد، القاهرة، ١٣٣٢هـ.

٢٢- شريفة المعتوق، لهجة العجمان في الكويت، ط١، مركز التراث الشعبي لدول الخليج العربية، الدوحة، ١٩٨٦م.

٢٣- عبد الرحمن أيوب، أصوات اللغة، مكتبة الشباب، القاهرة، بدون تاريخ.

٢٤- عبد الرحمن أيوب، محاضرات في اللغة، مطبعة المعارف، بغداد، ١٩٦٦م.

٢٥- عبد الصبور شاهين، في التطور اللغوي، ط٢، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٨٥م.
٢٦- عبدالعزيز الصيغ، المصطلح الصوتي في الدراسات العربية، ط١، دارالفكر، دمشق، ٢٠٠٠م.
٢٧- عبد العزيز مطر، الأصالة العربية في لهجات الخليج، دار عالم الكتب للنشر والتوزيع، الرياض، ١٩٨٥م.
٢٨- عبد العزيز مطر، لهجة البدو في الساحل الشمالي لمصر، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨١م.
٢٩- عبد القادر عبد الجليل، الدلالة الصوتية والصرفية في لهجة الإقليم الشمالي، ط١، دار صفاء للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ١٩٩٧م.
٣٠- عبد الكريم الزبيدي، ظواهر لغوية في لهجات السودان واليمن والخليج العربي، مجلة دراسات يمنية، مركز الدراسات اليمنية، صنعاء، العدد ٤٤ ديسمبر ١٩٩٢م.
٣١- عبد المجيد عابدين، من أصول اللهجات العربية في السودان، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ١٩٨٩م.
٣٢- عبد المنعم سيد عبد العال، لهجة شمال المغرب (تطوان وما حولها)، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٦٨م.
٣٣- غالب فاضل المطلبي، لهجة تميم وأثرها في العربية الموحدة، دار الحرية للطباعة، بغداد، ١٩٧٨م.
٣٤- غانم قدوري الحمد، المدخل إلى أصوات العربية، ط١، دار عمار للنشر والتوزيع، عمان، ٢٠٠٤م.
٣٥- ابن فارس، أبو الحسين أحمد ابن فارس، الصاحبي في فقه اللغة العربية ومسائلها وسنن العرب في كلامها، ط١، تعليق: أحمد حسن بسج، دار الكتب العلمية بيروت، ١٩٩٧م.

٣٦- الفراهيدي، الخليل ابن أحمد، ترتيب كتاب العين، ط٢، تحقيق: مهدي المخزومي، وإبراهيم السامرائي، تصحيح: أسعد الطيب، طهران، ١٤٢٥هـ.
٣٧- كارل بروكلمان، فقه اللغات السامية، ترجمة رمضان عبد التواب، مطبوعات جامعة الرياض، ١٩٧٧م.
٣٨- جان كانتينو، دروس في علم أصوات العربية، ترجمة: صالح القرمادي، أوفست الشركة التونسية، تونس، ١٩٦٦م.
٣٩- كمال بشر، الأصوات العربية، مكتبة الشباب، القاهرة، بدون تاريخ.
٤٠- كمال بشر، علم الأصوات، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ٢٠٠٠م.
٤١- محمد الأنطاكي، دراسات في فقه اللغة، ط٤، دار الشرق العربي، بيروت، بدون تاريخ.
٤٢- محمود الجومرد، اللهجة الموصلية، مركز البحوث الآثارية والحضارية، جامعة الموصل، ١٩٨٨م.
٤٣- محمود السعران، علم اللغة، ط٢، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٩٧م.
٤٤- المقري، أحمد بن محمد، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق: يوسف البقاعي، دار الفكر للطباعة والنشر، ط١، بيروت، ١٩٨٦م.
٤٥- يحيى عبابنة، دراسات في فقه اللغة والفنولوجيا العربية، ط١، دار الشروق للنشر والتوزيع، عمان- الأردن، ٢٠٠٠م.
٤٦- يحيى عبابنة، النظام اللغوي للهجة الصفاوية في ضوء الفصحى واللغات السامية، ط١، منشورات جامعة مؤتة، ١٩٩٧م.
٤٧- يوسف الخليفة أبوبكر، أصوات القرآن: كيف نتعلمها ونعلمها، ط١، مكتبة الفكر الإسلامي، الخرطوم، ١٩٧٣م.